شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية

الشيخ الأكبر ابن العربي

تأليف الشيخ
عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي
رضي الله عنه الله عنه
المتوفى 832 هـ

مقدمة الشيخ الجيلى رضى الله عنه

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أما بعد ؛ فإنه لما كان العلم بالله ، أعظم العلوم قدرا وأرفعها فخرا وأدقها معنى وأجلها سرّا ، إذ هو الغرض اللازم والواجب الدائم ، فحكمه ماض في الأولى والأخرى ؛ وما سواه من العلوم ، ينقطع حكمه بانصرام الدنيا .

وهو المقصود من معرفة سائر العلوم ، وبه لا بغيره تفتخر العقول والفهوم . والعلماء به ، هم أهل الولاية الكبرى والمكانة الزّلفى ، وهم أفضل العلماء - على الإطلاق - بالتفصيل والإجمال ، وأجمعهم لكل وصف محمود من صفات المجد والكمال . فهم الخلفاء ، الكملاء ، الأدباء ، الأمناء ؛ وفيهم قال الله :إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ[فاطر :28].

أردت - بإذن الله - أن أمنح عباد الله شربا من عباب المعارف ، وأظهر لهم حلاوة العلم بترتيب الحكمة في الآلاء والعوارف . وكانت الفتوحات المكية التي ألّفها الوليّ الأكبر والقطب الأعظم الأفخر ، مظهر الصفة العلمية ، ومجلى الكمالات العينية والحكمية ، لسان الحقيقة وأستاذ الطريقة ، المتبوع التابع لآثار الشريعة : محيي الدين ، قدّامة الأولياء المقرّبين ، أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي المغربي الأندلس « المتوفى سنة 638 هـ» ، قدّس الله سرّه وأعلى عنده مقامه وقدره ؛ أعظم الكتب المصنّفة في هذا العلم نفعا ، وأكثرها لغرائبه وعجائبه جمعا ، وأجلّها إحاطة ووسعا .

تكلّم فيها بألسنة كثيرة ، وأفصح عن معان غريبة خطيرة ؛ فصرّح تارة عن حالة ، ورمز أخرى عن حال .

وأفصح طورا عن مقصود ، وأدمج أخرى عن مراد في المقال .

ولم يزل - رضي الله عنه - يتكلّم في هذا الكتاب على حقائق الأشياء ، حتى آل به الأمر إلى الإسهاب والإطناب فعسر على الأكثرين تحصيله ، وفات عن الغالب معرفته وتأويله .

وصار الناس فيه بين أحد رجلين :

رجل عجز عن تحصيل الكتاب ، وعن انتوال الفائدة منه ، وخاب ،

ورجل حصّل ، وعجز عن معرفة ما أراده الشيخ من كنايات عجيبة وإشارات غريبة ، فانقطع بالكلية عن درك علمه ؛ لأنه : يحتار عقل كل فاضل ولبيب ، في حلّ مشكل ذلك الرمز الغريب .

لكنه - رضي الله عنه - صرّح بأنه جمع معاني العلوم المبسوطة في ذلك الكتاب ، <u>وجعلها مرموزة في الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من الأبواب</u> ،

وكفّ ذلك النّشر ، وأدمج ذلك العلم الكبير القدر ، الكثير الفخر ، على وضعه العجيب وأسلوبه العزيز الغريب ، فانغلق بالكلية فهم ما جعله في ذلك الباب ، على كثير من أولي الألباب .

<u>فقصدت بشرح هذا الباب المخصوص ، حلّ جميع مشكلات الكتاب .</u>

واختصرت في الكلام ، لئلا يفضي إلى الإسهاب والإطناب ، وسميته :
شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية .
غير أني سأتحفه تهذيبا ، وأجعله على أسلوب الكتاب ترتيبا ؛ ومن الله المرجو أن يعمّ به الانتفاع ، ويقدح بأسماعه زناد الأسماع ، فيفهم معانيه كل من سمعه أو نظر فيه ، إنه وليّ الإجابة ، والموفّق للإصابة .
وهو المستعان وعليه التكلان.

الباب الأول نحن محلّ انجلاء كلّ شيء وظهوره

أسرار إلهية

قال الإمام رضي الله عنه : الباب التاسع والخمسون بعد الخمسمائة ، في معرفة أسرار وحقائق من منازل مختلفة .

أراد بالأسرار : اللطائف الإلهية التي أودعها في ذوات الموجودات ، فاختصّ كل موجود بلطيفة هي محتده من كمال الحقّ تعالى ، بها يرجع إلى ربّه ؛ وهي الحاكمة على روحه وقلبه ، ومن ثمّ قيل : بين العبد وربّه سرّ لا يطّلع عليه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل .
وسبب ذلك ، أن كلّ شيء من الموجودات مملوء بما أودعه الله فيه من خصائصه ، فليس في شيء فضلة يسع بها ما في غيره . فما لكل أحد من الله ، إلا ما هو عليه ذلك الشخص منه ، غير هذا لا يكون ؛ ولكن قد يكون سرّ بعض الأشخاص ذاتيا ، فيرجع إليه في الحكم ، جميع أسرار الموجودات ؛ لضرورة رجوع الصفات إلى الذات ، فيحوي كل ما حواه الوجود ، إجمالا وتفصيلا ، وليس له على التفصيل ، إلا ما هو عليه عينا ووجودا . فافهم .

وأراد بالحقائق : ما تقتضيه تلك الأسرار من الأوصاف والنّسب الإلهية الحقيقية .
وأراد بالمنازل : أطوار المراتب المختلفة ، لأنه لا يمكن أن تجتمع مخلوقات في مرتبة من المراتب الإبداعية . هذا لا يكون أبدا ، لأن الله تعالى أوسع من أن يتجلّى على عبدين بصفة واحدة ، أو بصفة على عبد مرتين .
فليس في الوجود شيء مكرّر ؛ بل كل شيء له مرتبة مخصوصة به ، وصفة من صفات الله تعالى يرجع بها إليه ، واسم حاكم له وعليه .
ولولا ذلك لاختلطت الجزئيات ورجعت إلى الأمر الكلّي ، وانبهم الأمر التفصيلي ، والتحق بعض الوجود ببعض ، فزال الضدّ والنظير ، فاتّحد الماء بالنار ، وبطل حكم التركيب ، وليس هذا إلا في البداية والنهاية ، وأما في البرزخ الفاصل بين الأزل والأبد ، فلا بد من رعاية ترتيب الحكمة الإلهية التي بها قامت الأحكام وتميّز الكفر والإسلام وظهرت الربوبية والعبودية ، إلى غير ذلك من المراتب الخلقية والمظاهر الحقّية التي قصد الإمام - رضي الله عنه - أن يتكلّم عليها في هذا الباب.

فأول ما أنشأ في ذلك ، قال : لله في خلقه نذير يعلمهم أنه البشير . أراد رضي الله عنه بالنذير والبشير : الحقيقة المحمدية الكلية ، التي هي موجودة بجريانه في كل نبيّ بالحكم والوجود - فهي على - ووليّ بالعين والشهود . وفيما عدا هذين الوصفين . التحقيق روح الأرواح ، ولهذا قال : وهو السّراج الذي سناه يبهر ألبابنا المنير
أي ، الحقيقة المحمدية هي النور الذي يقع به التميّز ، ومن ثمّ عبّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن روحه الكريمة بالعقل، فقال في حديث : «أول ما خلق الله العقل».

وقد ورد عنه أنه قال : « أول ما خلق الله روح نبيّك يا جابر ».
فعلمنا أن روحه هي العقل الذي به ظهر الوجود ، وتميّز العابد من المعبود ، لأن الله تعالى جعل العقل الأول جامعا لحقائق الموجودات ، وأبرزها منه على الترتيب الذي أراده في علمه ، وقضى به في حكمه .
والدليل على ذلك ، ما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال حاكيا عن الله تعالى أنه قال للقلم : « اكتب . فكتب في اللوح المحفوظ ، ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة » .
والقلم هو العقل الأول المعبّر عنه بالروح المحمدية ، لقوله عليه الصلاة والسلام » : أول ما خلق الله القلم » . فوجه الجمع بين هذه الأحاديث الثلاثة ، أن يكون المراد بجميعها واحدا .
ثم نبّه الشيخ - رضي الله عنه - على تحقيق ظهور صفات العقل الأول في كل قطب كامل بقوله : في كل عصر له شخيص تجري بأنفاسه الدهور .
يعني : لظهور صفات الحقيقة المحمدية في كل عصر ، إمام مستكمل الشروط القطبية . تجري بأنفاسه الدهور . أي : يتحكّم في حركات الوجود وسكناته حسبما يقتضيه الكمال الإلهي ، خلافة محمدية .
وكان أول ظاهر بهذا المقام ، أبونا آدم عليه الصلاة والسلام . وهو لنا ، بحكم الوراثة من أبينا . وسيكون آخر من يظهر بهذا المقام ، عيسى عليه الصلاة والسلام.

ولما فرغ الشيخ ، رضي الله عنه ، من تعريفه ، أراد أن يصرّح أنه لا يكون في الزمان ، إلا لواحد ، فقال : عيّنه في الوجود فردا ، الواجد العالم البصير.
أي ذكره على التعيين ، أنه يكون فردا في الوجود ، لا منازع له فيه ؛ فعيّنه النّور المحمديّ الجزئيّ ، الذي هو روح .
والشيخ رضي الله عنه ، عبّر عنه بالواجد - بالجيم - لكونه وجده كذلك في سرّه ، وعلمه بإعلام الله إياه ، ورآه ببصره - فالوجود يتعلق بالإدراك ، والإعلام بالسمع ، والرؤية بالبصر ، فلهذا قال : عيّنه الواجد العالم البصير .
* * *
ولما فرغ الشيخ من التنبيه على ذلك ، استأنف الكلام ، ونادى حقيقة ؛ فقال : يا واجدا مجده تعالى ، ليس له في الورى نظير . إعلم أنه ليس كل من عرف الله تعالى ، وجد عنده تعظيم فمجّده كما ينبغي له ؛ وإنما يحصل ذلك للكمّل من أوليائه . ولهذا نبّه على ذلك من نفسه بقوله » : يا واجدا مجّده » ، أي عظّمه الله تعالى .
ولما كان في المحل مظنة لقول من يقول له : كأنك تقول إن القطب كالحق ، يتصرّف في العالم تصرّفه ؟ !
قال في الجواب ، دفعا لذلك السؤال : " ليس له في الورى نظير " ليزول توهّم السامع ، فلا يطعن في اعتقاد الشيخ .

ويحتمل أن يكون قوله « يا واحدا » بالحاء المهملة ، ويكون حينئذ " مجده " مرفوعا على أنه فاعل تعالى ؛ **فيكون تقديره :** يا واحدا تعالى مجده .ويكون الخطاب حينئذ للذات الإلهية ، التي هي ذاته وذات كل ذات ؛ فافهم .
ثم إنه أراد أن يبيّن أن ذلك التصريف المنسوب إلى القطب ، راجع إلى الله تعالى .
فقال : ليس لأنواره ظهور ، إلا بنا ؛ إذ لنا الظهور
أراد بالأنوار : الصفات والأسماء الإلهية التي لا ظهور لها ، إلا بوجود الخلق . لأنه يستحيل ظهور الرازق ولا مرزوق ، والخالق لا مخلوق ، والقادر ولا مقدور عليه ، إلى غير هذه المعاني ، مما لمقتضى الأسماء والصفات ؛ ولهذا قال : ونحن مجلى لكل شيء يظهر في عينه الأمور . الضمير في عينه ، يرجع إلى « مجلى ».

والمراد : نحن مظهر لكل شيء ، تظهر الأمور في عين ذلك المظهر ؛ أي تبدو فينا كلّ الأمور ، لأنّا مجلى كل شيء ومظهره ، لأن الحقّ الذي هو أصل جميع الأشياء ، إنما ظهر بنا من حيث ذواتنا وأعياننا ؛ فبنا تصوّر ، وفينا ظهر .
فنحن : محل انجلاء كل شيء وظهوره .
إعلم ، أيّدنا الله وإيّاك ، أن الشيخ - رضي الله عنه - لفّ في هذه الأبيات جميع ما أراد نشره في هذا الباب .
ولما أراد التنبيه على عظم هذا الباب قال : إعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس ، أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب .

هو الباب الجامع لفنون الأنوار الساطعة ، والبروق اللامعة ، والأحوال الحاكمة ، والمقامات الراسخة ، والمعارف اللدنية ، والعلوم الإلهية ، والمنازل المشهودة ، والمعاملات الأقدسية ، والأذكار المنتجة ، والمخاطبات المبهجة ، والنّفثات الروحية ، والقابلات الرّوعية . وكل ما يعطيه الكشف ، ويشهد له الحق الصرف .
التأييد ، هو المدد . وروح القدس ، هي الحقيقة الإسرافيلية التي تظهر على هياكل المحقّقين ، لتقدّس أرواحهم من نقائص أحكام البشرية وغيرها .و « من » زائدة ؛
فتقديره : إن هذا الباب أشرف أبواب الكتاب . لكونه هو الباب الحاوي لفنون - أي لجنس - الأنوار الساطعة ، وهي البوادي والبواده التي تفجأ العبّاد والزّهاد من مطالعات أنوار عجائب الملكوت .
والبروق اللامعة ، هي عبارة عن مبادئ ظهور أنوار التجليّات ؛ وهي لأهل البداية .
والأحوال الحاكمة ؛ يعني على المريدين : كالشوق ، والوله ، والقلق ، والحزن ، والقبض ، والبسط ، وأمثال ذلك . والمقامات الراسخة ؛ للسالكين : كالرضى ، والتفويض ، والزهد ، والمراقبة ، والمحاسبة ، وأمثال ذلك .
والمعارف اللدنية ؛ للعارفين : وهي العلوم الواردة عليهم من قبل الحق بلا واسطة ، لأنها من لدنه تعالى .

والعلوم الإلهية ؛ هي ما أدركه المحقّقون من المعلومات ، على حقيقة الاتصاف بالصفة العلمية الإلهية . . فهي من عين علم الله بذاته وبمخلوقاته . والمنازل المشهودة ؛ يعني مقامات الأولياء في الله تعالى ، من الغوثية والفردية والبدلية ، وغير ذلك .
والمعاملات الأقدسية ؛ هي التي من شأن الملامتية في جميع أحوالهم وحركاتهم . .
ولأجل ذلك جعلها " أقدسية " ولم يجعلها « قدسية » لأنهم ذاتيّون ، فكل ما ينسب إلى الذات من حيث هو ذات ، يسمى « أقدسيا » وكل ما ينسب إلى ما ينزل عن التجلي الذاتي - كتجليّات الأسماء والصفات - يسمى قدسيا .
والأذكار المنتجة ؛ التي هي من أوراد الصوفية ، أهل الاستقامة على الطريقة والشريعة . والمخاطبات المبهجة ؛ التي هي لأرواح الملائكة من الحق تعالى ، فيما يخصّ كلامهم على العموم ، ولأرواح عباد الله على الخصوص . وقد شرحنا طرفا منها ، في كتابنا المسمى « بالناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم » فافهم.

والنّفثات الروحية ؛ هي التي من شأن سادات الملائكة على التخصيص ، ونودي لهم أن يلقوا على من أراد الله تعالى من عباده ؛ فالنفث هو الإلقاء ، وهو للأنبياء وحي ، وللأولياء إلهام .
والقابلات الروعية ؛ يعني بالقابل : الكون ، وبالروع : النفس .
يريد بذلك : المظاهر الموجوة من نفس الحق فيه . وكلّ ما يعطيه الكشف ؛ يريد : من العلوم التي هي من وراء أطوار العقل والنقل ، فلا يدرك إلا بالكشف . وما شهد له الحق الصرف ؛ يعني علم بالكتاب والسّنّة ، وحكم العقل السليم .
فجمع هذا الباب ، أصناف العلوم المتعلّقة بالحق والخلق ، وما في الوجود سوى ذلك ، فحوى جميع علوم الوجود .
<u>ثم نبّه الشيخ - رضي الله عنه - على إحاطة هذا الباب بجميع ما في كتاب الفتوحات</u> ، فقال : ضمّنت هذا الباب ما يتعلّق بأبواب هذا الكتاب مما لا بد من التنبيه عليه ، مرتّبا من الباب الأول إلى آخره - يعني آخر الكتاب - فمن ذلك ، أي فمن بعض ما تضمّنه **هذا الباب من العلوم المذكورة :** سر الإمام المبين ؛ وهو الروح الذي تكلّم عليه في الباب الأول من الفتوحات ، وهو حقيقة الختم ؛ وهي اللطيفة الذاتية المتعيّنة في الصورة الجزئية ، بالكمالات الكلية .
فالسّرّ هو اللطيفة المذكورة ؛ والإمام المبين هو الروح الإضافية ، وقد عبّر عنها بقوله : الإمام المبيّن هو الصادق الذي لا يمين .
الفرق بين الروح الإضافية والسرّ ، أن السر هو اللطيفة الذاتية بنظره إلى الكمالات الإلهية ، من غير اعتبار المظهر .
والروح الإضافية ، هي عين تلك اللطيفة الذاتية ، لكن باعتبار المظهر وإضافته إلى الظاهر فيه .

وإنما سمّي السرّ سرّا ، لأنه تحذية بسرّ الربوبية المحضة ، تحقيقا لما تقتضيه الذات الإلهية . وأدب الموطن يقتضي عدم الإفشاء بذلك.

والحكم المسماة إنسانا وآدميا وعبدا ، لمقتضياته الذاتية له ، اللازمة لصورته الناقصة المباينة للكمال ، لئلا يلزم التناقض بين حاله ومقامه ، إذ ليس ذلك من الشؤون الكمالية . فكتمه لذلك المعنى من عين أوصاف الرتبة الكمالية فجعل ذلك التحذّي سرا لا جهرا ، لما يقتضيه الكمال من صفة الحق ، وأدب المقام اللازم للخلق .

ثم تكلّم على تلك اللطيفة بعبارة أخرى ؛ فقال : مجلى ما أحاط به العلم ، وتشكّل فيه الكيف والكم .
هو - أي الروح - محلّ انجلاء العلم الإلهي . يعني أن الروح المقدّسة ، التي هي عين الروح الإضافي والسرّ الذاتي ؛ هي عين العقل الأول المعبّر عنه بالقلم الأعلى . ولهذا كان مجلى المعلومات الإلهية ،
مما هو معنى :
كالصفات والأعراض ، أو صورة : كالذوات والجواهر . وعن ذلك عبّر بما " تشكلّ الكيف فيه".
ثم تكلّم عل تلك اللطيفة بعبارة أخرى ؛ فقال : وجلت به الأعراض ، وفعل بالإرادات والأغراض ، فانفعلت به الأوعية المراض .
أراد أن يبيّن أن تلك اللطيفة هي الروح الإنسانية ، التي هي المدبّرة للجسم ، فهي جوهر يحلّ العرض فيه ، ويفعل في عالمه وفي تدبير جسمه بالإرادة متى اختار ، وتنفعل له الأجسام التي تحت تدبيرها . .
وإنما سمّاها الأوعية المراض ، لأن الأجسام كالأرواح ، من حيث أنها عين الحق ؛ فلنقصان تحققها في الظهور بالصفات الإلهية التي تظهر في الأرواح ، سمّيت مراضا لأنها ليست في صحة اعتدال الأرواح .
فلما فرغ الشيخ - رضي الله عنه - من العبارة عن أطوار هذه الروح ، تكلّم عنها عند نهايتها في الرتبة الكمالية .
لأنه رضي الله عنه ، كان هو الإنسان الكامل ، وهذه العلوم التي يوردها في كتبه قاطبة ، مستفادة له ، أخذها من روحه ،
حسبما ذكر ذلك على الإطلاق في الباب الأول من الكتاب ؛ فقال يصف حالتها في الكمال : النور الباهر وجوهر الجواهر .
يعني : الروح الكامل ، هو النور الباهر . يريد بذلك ، صفات الألوهية ، لأن الذات ظلمة ، والصفات نور .
واعلم أنه من لا يكون في نفسه ذاتا ساذجا يقبل معناه الانطباع بكل صورة من صور الوجود ، سواء كانت تجليات إلهية أم عينيات كونية أم حكميات علمية ؛ لا يمكنه

تحقيق الاتصاف بالصفات الإلهية ، ولا يستطيع أن يبرز بالفعل ما هو فيه بالقوة ، ولا ينطلق بالشأن الكلّي ، لكونه مقيّدا بالحصر الجزئي .

وعن ذلك الانطباع بصورة كل صورة ، معنىّ عبّر عنه بأنه » جوهر الجواهر « ثم شرحه ، وأوضح ما أبهمه وفتحه ؛
فقال : يقبل الإضافات الكونية ، والاستتارات الغيبية ، والأوضاع الحكمية ، والمكانات الحكمية ، رفيع المكانة ، كثير الاستكانة ، علم في رأسه نار ، عبرة لأولي الأبصار .
يعني : أن روح الإنسان الكامل ، يقبل جميع أحكام الظهور والبطون . .
فكنّى عن أحكام الظهور ، بالإضافات الكونية . وعن أحكام البطون ، بالاستتارات الغيبية - والاستتارات بالتاء المثناة من فوق والغيبية بالغين المعجمة - وهو العالم المقابل لعالم الشهادة ؛
يعني : إنه مع تمكينه بعالم الغيب ، شهاديّ ، ومع تحقّقه بعالم الشهادة ، غيبيّ .
فهو في الآن الواحد والساعة الواحدة : ظاهر بوصف الحقّ والخلق ، قابل لحكميهما .
وكنّى عن ترتيب وضع الحكمة في الأكوان ، بقوله " والأوضاع الحكمية " بتحريك الكاف .
وكنّى عن المكانة الإلهية التي قبلتها هذه الروح الكاملة ، بقوله » والمكانات الحكمية « بإسكان الكاف .
فالإنسان " رفيع المكانة " لأنه موصوف الصفات الإلهية . » كثير الاستكانة « إلى ما هو له من ذلك الجناب . » **علم في رأسه نار** « أي : هي علم على الذات الإلهية .
» **في رأسه النار** « الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، المعبّر عنها بالجلال والعظمة والقهر والكبرياء ، فهي الرياسة الإلهية التي هي آخر شيء يخرج من رؤوس الصدّيقين ، أي تظهر عليهم في نهايتهم ؛ لأن الاتصاف بالعظمة والكبرياء والقهر ، لا يكون إلا في الكمال .
ومن ثمّ ، هلك الرجل الذي نظر إلى أبي يزيد - وقد كان يرى ربّه كل يوم فلا يضرّه شيء ولم يصبه سوء - لأنه كان يرى ربّه على قدر قابلية نفسه ، فاستطاع الثبوت عنده لذلك ، فظهر عليه أبو يزيد بالعظمة والهيبة - ومن وراء قابليته - فهلك لأن قابليته لا تبلغ قابلية أبي يزيد ، فما استطاع الثبوت عنده .
ولذلك قال فيه إنه لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ[النّور : 44] وقد شرحنا في هذه النبذة ، جميع ما حواه هذا الباب من كتاب الفتوحات ، فافهم .

*

الباب الثاني هيهات . . أنّى يسع الكون ذلك!

قال الشيخ : ومن ذلك ، أي ومن بعض ما تضمّنه هذا الكتاب من العلوم المذكورة : سرّ الظرف المودع في الحرف . سرّ الظرف ، هو المعاني الكمالية التي أودعها في الحرف . والحرف هو الاسم والصفة الإلهية ؛ وقد شرحنا ذلك في كتابنا « الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم »
وقلنا فيه إن الحروف على ثمانية أطوار :
-**حروف حقيقية** ؛ وهي أعيان الأسماء والصفات .
-**وحروف عالية** ؛ وهي ذوات معلومات العلم الإلهي ، المعبّر عنها بالأعيان الثابتة في العلم الإلهي .
-**وحروف روحية** ؛ وهي الأرواح النورية التي أظهر الله بها هذا الوجود ، كما أظهر الكلمات بالحروف الملفوظة .
-**وحروف صورية** ؛ وهي جوانح هذا العالم الكلّي وجوارح الإنسان ، بالحكم الجزئي . وقد فصّلنا في كتابنا الموسوم « بقطب العجائب وفلك الغرائب »كل ما يختصّ بجوارح الإنسان من الحروف ، وقس على ذلك ما يضاهيه من العالم الكبير.

وقد ذكرنا مضاهاتها في كتابنا الموسوم « بالناموس الأعظم والقاموس الأقدم ، في معرفة قدر النبيّ صلى الله عليه وسلم » فتفطّن لذلك ، والله الموفّق .

-**وحروف معنوية** ؛ وهي حركات الأشياء وسكناتها ، ينشأ منها حروف ، يتركب من تلك الحروف كلمات مناسبة لحال ذلك المتحرّك ، كالإنسان في حال قيامه ، يتركب منه صورة ألف ؛ وهي في حال منامه صورة الباء ، إلى غير ذلك . حتى أنه يتصرّف صاحب هذا العلم ، بحركات جسمية كما يتصرّف بالحروف ، إن كان عارفا بكيفية التصرّف بها .
-**وحروف حسية** ؛ وهي ما تشاهد رقما وكتابة .
-**وحروف لفظية** ؛ وهي ما تشكّل في الهواء من قرع الريح ، الخارج من الحلق على مخارج الحروف .
-**وحروف خيالية** ؛ وهي صورة تلك الحروف في نفس الإنسان ، عند تعقّله لها .
وكلّ نوع من أنواع هذه الحروف ، ظروف لسرّ إلهيّ . أي مظهر لظهور كماليّ ، أودعه الله بتجليه عليه ، حين خلقه من المحتدّ المقتضي لذلك ، بحكم ما لذلك المحتدّ من معنى الجمال أو الجلال أو الجمع أو الكمال .

ولما كانت الأسماء والصفات ، حاملة لما فيها من شؤون الذات الظاهرة عليها لذي التجليات ؛ **قال : الظرف وعاء** ، والحرف وطاء .
يعني بالظرف : الألوهية المفهومة عند إطلاق اسم الله على ذات واجب الوجود تعالى ، عند اعتبارك لما يوصف به من الكمال والجمال والجلال .

فالاسم - أعني مفهوم هذه الحروف - محلّ لتلك الكمالات المعبّر عنها بحقائق الأسماء والصفات .
وعاء ، أي : الألوهية حاملة للمعاني الكمالية الإلهية .
والحروف - يعني الإنسان - وطاء ، أي مظهر لتلك المعاني ، تختلف صورته وتحكم سورته ، **يعني :** الألوهية تختلف صورتها بحسب تعيّنها في كل فرد من الكمّل الأفراد ، كما ظهرت في إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلّم أجمعين ، وفيمن سواهم من الأنبياء والأولياء على الخصوص ، بالتعيين والوجود ، بل في كلّ ذرّة من ذرات الكائنات على العموم بالحكم والشهود ، فهي على اختلاف صورها ومظاهرها ، واحدة العين ، لا تعدّو فيها من حيثها .
وإلى ذلك أشار بقوله « وتحكم سورته »
ولهذا قال : هو . يعني الظرف الذي عبّرنا عنه باسم الله - وإن شئت قلت الحرف الذي عبّرنا عنه أنه الإنسان الكامل - معنى المعاني .
يصحّ أن يكون « مغنى » بالعين المعجمة ، فيكون تعبيره : أنه محل المعاني الكمالية .ويصحّ أن يكون
بالعين المهملة ، فيكون معناه : أن الاسم « الله » معنى معاني الأسماء والصفات ، أي مفهوم جميع الكمالات الإلهية . لأن الألوهية هي المظهر لاختلاف الأشكال والمباني .
<u>المباني - بالباء الموحدة من تحت - تعني</u> : أن الألوهية ، التي هي حقيقة الأسماء والصفات ، هي التي أظهرت صور الأشكال الخلقية والأوضاع الكونية . لكونها آثار تجليات « السبع المثاني » التي هي أمهات الظهور وأئمة المظاهر الحقّية ، فهي الحياة والعلم والإرادة والقدر والسمع والبصر والكلام .
وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى لنبيّه :وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ(87) [الحجر : 87] .
والمراد بالقرآن العظيم ، ما ترجع إليه هذه الصفات .
فكانت الألوهية - وإن شئت قلت روح الإنسان الكامل - جامعة للمظاهر الخلقية والمظاهر الحقّية عموما على الإطلاق .
ولهذا قال : يحوي الله وجوده . أي يحيط وجود الإنسان الكامل واسم الله ، بجميع معاني الألوهية تفصيلا وإجمالا .
ويغني عن شهود الحق شهوده . أي : شهودك للإنسان الكامل يغنيك عن شهودك للحق المطلق .
ويحتمل أن يكون المراد : إن شهودك لمعاني الألوهية - باستحضارها في ذهنك وتعقّلك لها ، يغنيك عن مطالعة ما نقل إليك بالكتاب والسنّة من العلوم والمعارف ، التي هي حقّ لا ريب فيه . يعني :

أنك تنال بدوام حضورك مع معاني الاسم الإلهي ، وتعقّلك له بحكم ما يقتضيه من الكمالات ؛ تصل إلى ما لا ينال ، وتصل إلى ما لا تصل إليه بواسطة النقل والعقل ؛ على أنهما حقّ .
ولما بيّن حقيقة الإنسان الكامل ، من حيث أمره الكلّي ؛ أراد أن يكشف عن كيفية تقلّبه في الأطوار الكلية التي تتحقّق بها له ، حقائق ما هو منطو فيه من الألوهية المحضة ، فقال منازله معدودة .
وهي سبعة أطوار ، لا بد لكل كامل أن يقطع تلك المنازل ، حتى يبلغ درجة التحقيق .

الطور الأول « التوحيد الصرف »

لا بد للوليّ أن يقطع مسافة الفرق ، حتى يحصل في حقيقة الجمع ، فلا يشهد ولا يسمع ولا يعلم شيئا سوى الله تعالى ، وهو ما دام فانيا ، لا يسافر من هذا المنزل .

فإذا بقي بالله ، سافر إلى الطور الثاني ، فيحصل في حقيقة جمع الجمع.
وفي هذا المشهد ، يفنى من كان باقيا بالطور الأول ، ويبقى من كان فانيا ، فيتحقّق حينئذ بالوحدة المحضة ، ويضرب له مثلا على الرقيم الحامل للمعاني الكمالية بكأس ملآن خمرا ، فشرب الخمر ، ورمي بالكأس ، فانكسر وانعدم.

ومن هذا المنزل ، يسافر إلى الطور الثالث _

وهو طور السذاجة المحضة الذاتية الصرفة - فيقبل بحقيقته وهيئته ، التصوّر بكلّ صورة من صور التجليات ، ومعنى من معاني الأسماء والصفات ، وبكلّ هيئة وحالة وشكل وحكم من سائر الموجودات .
فيكون عين كل شيء ، على ما هو عليه ذلك الشيء . ويكون متصوّرا في نفسه بصورة ذلك الشيء ، يرى نفسه فيه بنفسه ، على التفصيل ؛ جمعا وفرادى ، ظاهرا وباطنا ، حقّا وخلقا ، كونا وبونا .

ومن هذا المنزل ، يسافر إلى الطور الرابع .

فيعطى مفاتيح الغيب ، وهي الأسماء التي أظهرت صور الكائنات من الغيب إلى الشهادة .
فهي مفاتيح لأقفال خزائن الغيوب ، وهي أسماء الأفعال التي كانت المؤثّرة في ظهور عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، ويسميها الشيخ : المفاتيح الثواني .
وفي هذا الطور ، يسبح في فلك الأسماء والصفات - في كل اسم وصفة على حدته - حتى يعلم مقتضياتها ، على ما هي عليه في محلها .

ومن هذا المنزل ، يسافر إلى الطور الخامس .

فيعطى مفاتيح غيب الغيب - وهي أمهات الأسماء ، وأئمة الصفات - فيصرفها بالذات ، ويتحقّق بها صورة ومعنى في جميع الأوقات .
ومن وصل إلى هذا الطور ، لا يتوارى عنه مشهوده بحال أصلا ، ولا يجوز عليه الاستتار قطعا .
وهذه الأسماء ، هي التي يسميها الإمام رضي الله عنه بالمفاتيح الأوّل ؛ فيتحقّق العبد بالاتصاف بها .

ومن هذا المنزل ، يسافر إلى الطور السادس ؛
فيستكمل التحقّق بالأسماء الذاتية والنعوت الصفاتية والأوصاف الفعلية ، ويتعيّن في الظهور بها جملة وتفصيلا .
وفي هذا المنزل يتدرّع بالهيبة ، ويتوّج بالعظمة ؛ فتكون له .
فلو نظر - بنظر نفسه البشرية الإنسانية - إلى جبل بالقهر ، لتدكدك من هيبته ، وتلاشى لعظمته . فكيف له لو رأى ذلك بحقيقة الإلهية .
هيهات أنّى يسع الكون ذلك ! بل لا يتجلّى عظمته - كما هو له - إلا عنده ، وفي علمه .
ولهذا قال الله تعالى :وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ [الأنعام : 91]
يعني : كلّ ما سواه لا يستطيع أن يقدّره ، فيعظّمه بذاته لذاته ؛ لأن الكون وجود مقيّد ، فلا يستطيع لشيء من ذلك . فلو لمحت بارقة من عظمة جلال الله تعالى على الأكوان ، لأعدمتها بالعين والحكم جملة وتفصيلا .

ومن هذا المنزل ، يسافر إلى الطور السابع ، المعبّر عنه بنزول الحق في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا . وعندها يطلع الفجر ، وتظهر شمس الكمال على سائر أعضائه الجسمانية - على حسب ما كان لروحه وقلبه - فيكون جسمه روحا ، وقلبه عقلا ، بالعين والحكم والوجود جملة وتفصيلا .
وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » « 1 » . . فافهم !

وما بعد هذا المنزل ، إلا العجز والحيرة في التجليات التي لا نهاية لها .
وهذا العجز ، عين الكمال والقدرة . وهذه الحيرة ، عين الثبوت . ونهاية ما يعبّر به عن هذه الحيرة وهذا العجز ،
بأن يقال : إنه يجد كمالاته الإلهية ، التي هي له ، على ما هي عليه من عدم النهاية التي يعجز العلم عن الإحاطة بها ، من حيث أنها لا نهاية لها .
فبالنظر إلى هذا العجز ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا أحصي ثناء عليك . . »
وبالنظر إلى ما هو من كمال الصفة العلمية له تعالى ،

قال : « أنت كما أثنيت على نفسك » .
ولتحقّق روح الإنسان الكامل بالحقائق الإلهية ، قال : آثاره مشهودة .
يعني : آثار الإنسان الكامل مرئية بالعين ، لأنه يحيي الموتى ، ويميت من شاء من الأحياء ، وينبئ الناس إذا شاء بأسمائهم وأفعالهم وبما يأكلون وما يدّخرون إلى يوم القيامة . كلماته محدودة .
يعني : أنه يقف بالكلام على حدّ الشريعة ، فلا يخرج منه بلسان القدرة ، عن سياج الحكمة ، بل يؤدي حقّ العبودية بظاهره ، كما أدّى حقّ الربوبية بباطنه . وآياته بالنظر مقصودة .
يعني : أنه في نفسه لنفسه ، يتجلّى متى شاء بما شاء فيما شاء . فكنّى بالآيات عن التجليات الإلهية ، بحكم الأسماء والصفات ؛ يقصد منها : الظهور بما شاء ، والبطون بما شاء .
وإلى تحقيق ذلك أشار بقوله : أعطي مقاليد البيان ، فأفصح وأبان .
يعني : أنه أوتي التمكين بالبيان - أي بالظهور - فأفصح ، وأظهر كلماته .
"وأبان " عن المعاني بإرادة ذاته .
وسوف أنبّهك على علم شريف قد رمزه الشيخ في ذلك من وجه ، وصرّح به من وجه.
وهو أن جميع ما شرحناه لك في صفة هذه الروح الشريفة ، من أطوار المعاني المذكورة هنا ؛ إنما هو من حيث كون الإنسان حرفا من حروف أحد الأنواع الثمانية المذكورة في تقسيم الحروف .
فاعتبر مثل جميع هذه المعاني المذكورة وكمالها ، لكل حرف من حروف كل نوع من الأنواع الثمانية ؛ لأن الحروف « وطاء » أي محل ظهور الأسرار الإلهية .
والحروف كلها مرائي يظهر فيها معنى السرّ الإلهي ، لكن له في كل طور حكم مخصوص ومشهد منصوص وأثر منفرد ، وينسبه تحقّقه ، على أسلوب عجيب ونمط غريب ، لو أردنا أن نتكلم في ذلك ، لاحتجنا إلى مجلدات .
ولكن تفطّن ذلك وتدبّره ، فكلما قلنا لك « إن الأعيان الثابتة حروف ، وكان النوع الإنساني من جملتها » فهو بالنسبة إلى بقية الحروف ألف .
فاعتبر ذلك المعنى لكل ألف من أنواع الحروف الثمانية ؛ كالعقل الذي هو ألف الحروف الروحية ، فإنه يجمع العلوم والخصوصيات كلها ، كما يجمع الإنسان الكامل . وكالألف الرقميّ ، فإنه يجمع المعاني المودعة في الحروف كلها ، كما يجمّل جميع الملفوظات ويوصلها إلى من أمره الله به .
فاعتبر هذا المعنى ، في كل قسم من هذه الأقسام الثمانية ، بما يناسب ذلك العالم ، ترى عجائب وغرائب من أسرار الله تعالى ، فقد فتحت لك بابا إليها .
واستعن في تحقيق ذلك ، بما ذكره الشيخ في الباب الثاني من الكتاب ، عند ذكره مراتب الحروف اللفظية وعوالمها وأطوارها وخواصها وما أودع الله تعالى فيها من

العجائب والغرائب ، مما يطول شرحه . وسوف أنبّهك في الأبيات المذكورة هنا ، على ما يعينك على معرفة ذلك ، إن شاء الله تعالى .
قال الشيخ : فمنه نثر ، ومنه نظم ، ومنه أمر ، ومنه حكم . إن للتجليات الحقيقية ، التي هي للإنسان الكامل ، نثر تجليات ذاتية منفردة ، غير متعدّد ، ليس لكل تجلّ إلا اسم واحد . ومنه نظم تجليات صفاتية ، يجمع كلّ تجلّ أسماء متعدّدة وصفات متغايرة ؛ كتجلي القدرة - مثلا - يجمع جميع تجليات الأفعال ، وكذلك تجلي الإرادة ، وكذلك تجلي العلم ، وكذلك تجلي الجمال ، وكذلك تجلي الجلال وتجلي الكمال ، إلى غير ذلك من تجليات الصفات والأسماء التي لها الهيمنة على ما تحتها .

ولهذا قال « فمنه أمر » أي ، مما يصدر من تجلياته ، أمر بوجود أو تكوين ، أو غير ذلك من أوامر الحق تعالى على عباده . « ومنه حكم » نافذ لا يتغيّر في العالم ، لأنه الحقّ المتعيّن ؛ هذا معناه .

ولما كان ذلك للإنسان ، الذي هو حرف من الحروف العاليات ؛ كذلك هو للألف الذي هو حرف من الحروف الحقيقية أو الروحية أو المعنوية أو الصورية أو اللفظية أو الرقمية أو الخيالية .
ألا تراه يقول : « فمنه نثر ، ومنه نظم » إن اعتبرته في الحروف اللفظية ، وجدت الأمر كذلك ، « ومنه أمر ومنه حكم » كلفظة أفعل ؛ وهذه حروف مركبة .
ولفظة قول وفعل ، وغير ذلك ، كلها أمر ؛ وكلّ منها حرف واحد غير مركّب !
فاعتبر جميع الباب في أطوار الحروف ، تقع على كنز من كنوز الله تعالى .
وإنما ضربنا على تبيّن كل ذلك ، لئلا يفوت الغرض من تأليف هذا الكتاب ، والمراد بذلك سعادتك ، وإنما هي في معرفتك لنفسك ، فلأجل ذلك تكلّمنا على الإنسان وحده .

وقال في اللفظية والرقمية والخيالية أنها : ابن الإمام المبين . الذي هو اللوح المحفوظ ، لأنها تبرز بتلك الحقائق ، كما تبرز المعاني من القلوب . لا ، بل هي أبوه .
يعني : هي أصل لتلك الحقائق المكتوبة في اللوح ، لأنه لا بد من حروف كتبها القلم في اللوح حتى قرئت .
وتلك الحروف ، ولو كانت على غير هذه الهيئة ، فهي عين هذه الحروف الرقمية ؛ لأنها متلوّة مقروءة ، ولو بلا معنى ؛ فلا يخرجها ذلك عن كونها حروفا ، فهي - أعني الحروف - أصل للمعاني الموضوعة في اللوح المحفوظ ، إذ بها الكمال والتمام .
لكونها مشهودة صورة ومعنى ، والموضوع في اللوح المحفوظ إنما هو مشهود معنى لا غير ؛ فجمعت هذه الحروف ، حقائق المعنى والصورة . .
وليس ذلك لتلك ، فافهم .
ولكون الإنسان الكامل ، كلّي التحقيق ؛ قال : إذا أسهب ذهب . أسهب - بالسين المهملة - يعني إذا طوّل وأطنب - يقال « أسهب في الكلام وأطنب » إذا طوّل في الحديث .

المراد : إذا تمادى وأطال نظره إلى حقائق صفاته - التي لا نهاية لها ، وكلها كمالية - ذهب عن حكم الكون ، فلا يسمّى خلقا بوجه من الوجوه ، لأنه قد ذهب عن العالم وما فيه بالكلية ؛ فليس هو من العالم ، ولا هو فيه .

وإذا أوجز أعجز . الإيجاز ضدّ الإسهاب ، يعني : أن الإنسان إذا اختصر في نفسه ، فوقع نظره في صفاته ، إلى نظره لذاته ؛ أعجز غيره عن دركه

وإن شئت قلت : أظهر كلّ أمر معجز وإن اعتبرت ذلك في الحرف اللفظي والرقم ، فمعناه ظاهر . .

ومن ثم قال : فصيح المقال ، كثير القيل والقال .

يعني : أن الإنسان الإلهي الكامل ، ظاهر التكوين بالكلمة ؛ كثير الكلام ، لأن الموجودات كلها كلمات . تختلف أشكاله ومعارجه ، لأنه متصوّر بكل صورة خلقية ، ومتحقّق بكل حقيقة إلهية ؛ فهو مختلف الأشكال والمعارج .

ويخفى على المتّبع أثره ومدارجه . لأنه من وراء قوة أطوار الكون ، فيخفى أثره على كل متّبع ، لأنه لا يبلغه حدّه ، ولا يصل إليه دركه .

واعتبر تلك المعاني في الحروف ، فالحرف اللفظي تختلف أشكاله على حسب وضع كل واضع بكل لغة .

و « يخفى على المتّبع أثره » يعني : على المقتفي له ، معرفة ما جعل الله في كل حرف من أثر - بالخاصية والطبع والفعل - في كل معنى وصورة ، مما لكل حرف من التصرّف .

لأن الحرف ، وإن شئت قلت الإنسان الكامل : كائن بائن .

يصحّ أن يقول عن الإنسان الكامل إنه « كائن مع الحقّ ، بائن عن الخلق » ويصح أن يقول « هو كائن مع الخلق ، بائن عما هم فيه » كما أن الحرف كائن في رتبة الإحاطة ، بائن عن حكم القيد بالإحاطة ؛ لكونه يفعل بحقيقته في الغيب ، فهو غير محصور على ما يشهده من صورته .

ومن ثمّ ، قال عن الحروف - وإن شئت قلت عن الإنسان الكامل ، بل هو الإنسان - راحل قاطن .

أي راحل عن المراتب الخلقية ، قاطن في المراتب الإلهية .

استوطن الخيال ، فأقام في عالم ؛ معناه : وهو محل العلم بالله .

وافترش الكتاب ؛ **يعني :** لما كان في باطنه ساكنا مع ربه ؛ افترش الكتاب ، يعني اتخذ الصفات والأسماء الإلهية ، فرشا له في موطن كماله ، يتقلّب عليها .

واستوطأ اللسان ، بتحقيق القدرة والإرادة ، في نفوذ الأمر بكلمة :كُنْ[النّحل : 40] حيث يريد .

واعتبر هذه المعاني للحروف الرقمية واللفظية والخيالية ؛ فالخيالية مستوطنة الخيال ، لأنها لا تكون إلا في عالم الخيال ، فلا تخرج عنه ؛ والرقمية افترشت الكتاب ، لأنها

متلوّة ، فلا تكون إلا في الصحف ؛ واللفظية استوطأت اللسان ، فلا تظهر إلا بواسطته . وقس على ذلك ، كلّ الأقسام الثمانية .

وقد شرحنا في هذه النبذة ، جميع ما حواه الباب الثاني من كتاب الفتوحات ، في الحروف وغيرها ؛ ونبّهناك على ما هو المقصود من ذلك .

*

الباب الثالث ما ثمّ أمر فاصل بين الله وبين العالم

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب من العلوم المذكورة : سرّ التنزيه النزيه . التنزيه النزيه ، هو تنزيه الحقّ تعالى لنفسه ، كما يعلمه لذاته . وهذا التنزيه لا يقابله تشبيه ، بل هو منزّه عن مقابلة التشبيه .
فتنزيهه لا نعلمه ولا نعقله ، لأن كل تنزيه ننزّهه به ، إنما هو منوط بضدّية التشبيه .
فهو إذن يتعالى عن تنزيهنا له ، فتنزيهه منزه عن التنزيه والتشبيه .

ولأجل ذلك ، قال : التنزيه تحديد المنزّه . لأنك عندما تريد أن تنزّهه عن معنى التشبيه ، ليحصل بذلك ما تريده من التنزيه ؛ وبهذا الفعل تحصره على ما يضاد التشبيه ، فتحدّه وتقيّده بذلك المعنى ؛ فالتنزيه تحديد وتقييد . والتشبيه تثنية المشبّه ، لأنك إذا قلت « هو كذا وكذا » على التقييد بصورة واحدة دون غيرها ، فقد أشركته مع تلك الصورة في معنى واحد ؛ وهذا هو عين التثنية .
فكلا الأمرين على انفرادهما ، خطأ ؛ والصواب جمعهما بحيث أن تنزّهه في عين التشبيه ، وتشبّهه في حكم التنزيه .

وإلى هذا أشار ونبّه بقوله : فيا ولدي . يخاطب تلميذه بدر الحبشي بقوله ، ليسمع غيره : تنبّه وتفكّر فيمن نزّه وشبّه . يعني : تأمّل فيمن جمع بين الوصفين ؛ هل حاد عن سواء السبيل ؟ كلمات الاستفهام إذا صدرت عن العارف بما يستفهم عنه ، تكون إما نفيا وإما إثباتا ؛ لأن المتكلّم يعرف المعنى ، فلا فائدة للاستفهام .
و « هل » هنا بمعنى النفي ،
يعني : أن كل من جمع بين التشبيه والتنزيه ، ما حاد عن سواء السبيل .
أي ، ما مال عن طريق الله ، الذي هو صراط الله في نفسه .
وذلك هو المعبّر عنه بتجليات ذاته في حقائق أسمائه وصفاته ؛ فما حاد عن ذلك ، من كان على هذا الوصف ؛ لأنه عرفه على ما هو الأمر عليه .
وهل هو من علمه في ظلّ ظليل . ولفظة « هل » هنا بمعنى الإثبات ،
وتقديره : نعم هو من علمه أن الحقّ هو المنزّه في التشبيه والمشبّه في التنزيه ، في ظلّ .
يعني : في ستر مانع ، مستور بصفات الحق عن صفات الخلق ؛ ولهذا كان ظلّه ظليلا ، وإلى هذا أشار القائل ، بقول أبو نواس الحسن ابن هانئ:
تسترّت في دهري بظلّ جناحه * فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيّام ما اسمي ما درت * وعن موضعي لم تدر أين مكاني

فمن هو بهذه الصفة على التحقيق : هو في خير مستقر وأحسن مقيل . لأنه يتنعّم بتجليات ربّه بين الصورة والعروج والمعنى .

فلا يخرج عنها بوجه من الوجوه ، بل يجدها في كل حال من الغيبة والحضور ، والنزول والصعود ، والعروج والهبوط ؛ على اختلاف الظهور ، فأمره نور على نور .

ولما فرغ الشيخ من تعريف حال من له الجمع ، رجع إلى تعريف حال من له الفرق ، ليميّز بينهما . فقال : المنزّه يخلي ، بالخاء المعجمة ،
يعني : يخلّي الحق عن صفة التشبيه ، فيعطّله . والمشبّه يحلي ، بالحاء المهملة ،
المعنى : أنه يلبس الحقّ حلية غيره ، فيقصره على صورة الخلق .
والذي بينهما لا يخلي ولا يحلي .
يعني : والعارف الذي بين التشبيه والتنزيه ، لا يخلي الحقّ عما هو له ، ولا يحليه بصورة غيره .
بل يقول : هو عين ما بطن وظهر ، وأبدر واستتر.
يعني : إن العارف بوصفه ، يصف البطون والظهور ؛ فبصفة الكمال الحكمي له البطون ، وبصفة تعيّن الوجود له الظهور .
فهو - أي الحق - عين ما أبدر ، أي صارت بدرا بالكمال والجمال والجلال ؛ وعين ما استتر ، أي استتر باللباسات الخلقية .
فهو ، أي الحقّ تعالى . الشمس والقمر ، أي العبد والرب . والعالم له ، أي لله تعالى . كالجسد للنفس ، وكالصورة للمعنى ، فالخلق صورة الحقّ ، والحقّ معنى الخلق ؛ فلا خلو للمعنى عن الصورة ، ولا للصورة عن المعنى .
ولهذا ، قال : فما ثمّ إلّا جمع .
يعني : ما ثم ظهور للحقّ إلا بالخلق ، ولا ظهور للخلق إلا بالحقّ ؛ فلا وجود إلا لصورة الجمعية بينهما ، لأن الله عين كلّ موجود . .
ولمّا لم يوجد في الوجود خلق خال عن وجود الحقّ ، ولا حقّ خال عن وجود الخلق ،
قال : ما في الكون صدع . الصدع في اللغة ، هو الشقّ الفاصل بين جزئيّ الجدار ؛ استعاره هنا ، للثنوية المتوهّمة بين الخلق والحق .
وتقديره : ما ثمّ أمر فاصل بين الله وبين العالم ، بل هو عين العالم والعالم عينه ! فإن توهّمت فاصلا ، فإنما هو من حيث وهمك لا غير . لأن العالم له ، كهيكل الإنسان للنفس الناطقة .
إن لم يكن الأمر كذلك . **يعني :** إن لم تكن حقيقة الأمر ، على أنه عين العالم ، وأن العالم عينه .
فما ثمّ شيء هنالك ، فما ثمّ شيء زائد على العالم وحقيقته ؛ فاترك ما توهمته من أنه خارج عن حقيقة العالم ، وأن وجوده أمر زائد على الكون ؛ واعلم أنه عينك وأنت عينه .
والأمر موجود . يعني : ذات الباري تعالى - أحديّ العين » - موجود » في جميع ما يتصوّره من صفتي الحقّ والخلق ، فهو واحد العين في كثرة تعدادات الأين .
لا بل وجود . نفى الكثرة ، لأنه عين الوجود المطلق ، فلا تعدّد في الوجود .

ومن هنا نكّره فقال « وجود » ولم يقل « الوجود » لكون الكثرة عين الواحدية ، من غير تعقّل مباينة ، لأنه عين التباين والتطابق .
والحكم . يعني : آثار الصفات الإلهية في الذوات المخلوقة . مشهود لا بل شهود ؛
يعني : أنها مرئية وهي عين الرؤيا التي نراها بها ، فهي المشهود والشاهد والشهود .
وبالنّسب صحّ النّسب .
أي : بالربوبية وجدت العبودية ، وبالعبودية وجدت الربوبية ، فلا تعقّل لإحداهما إلا بالأخرى - كالمعلومية ؛ لا تحقّق بها إلا بالعالمية ، ولا تحقّق للعالمية إلا بالمعلومية .
. وكلا المرتبتين لا وجود لهما إلا بتعقّل الصفة العلمية ، ولا وجود للصفة العلمية إلا بتعقّلهما .
وكلّ واحد من العلم والعالم والمعلوم نسبة ؛ فما وجدت النّسب إلا بالنّسب .
ولولا المسبّب ، ما ظهر حكم السّبب .
المسبب يجوز أن يكون بالفتح والكسر ؛ فإن قلنا بالكسر ، كان اسم الفاعل ، وتقديره : « لولا الله الذي أوجد الأسباب ، لما ظهر حكمها » وإن قلنا إنه بالنصب ، كان اسم المفعول ،
يعني : « المسبّب ، الذي هو مفعول السبب ، أعطي السبب حكم السببية » فكما أن القلم ، الذي هو سبب الكتابة ، علة لوجود المكتوب ؛ كذلك المكتوب علة لنسبة السببية إلى الكتابة ، كما أن كلا منهما علة لنسبة السببية إلى الكاتب .
وكذلك الكاتب علة لنسبة السببية إلى القلم ، كنسبة السببية إلى المكتوب - فبالمسبّب - الذي هو فاعل - وبالمسبّب - الذي هو مفعول - ظهر حكم السبب عنهما ؛ فكان هذا به فاعلا ، وكان هذا به مفعولا . . فارتبط الأمر بعضه ببعض .
ولهذا قال : فإن قلت :لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[الشّورى : 11] زال الظلّ والفيء ، والظلّ ممدود بالنص ، فعليك بالفحص .

إعلم أيّدنا الله وإيّاك ، أن الشيخ - رضي الله عنه - ذكر في غير موضع من مؤلفاته ، أن الكاف فيلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[الشّورى : 11] يحتمل أن تكون زائدة ،

فيكون المعنى : ليس مثل الحق شيء ، لأنه عين الوجود كله ، فلا مثل للوجود - لأنه لو كان للوجود مثل ، لصحّ أن يطلق عليه اسم الوجود - فالواجد أمر واحد ، لا مثل له على الحقيقة .
ويحتمل أن تكون الكاف تشبيهية ، فيكون معناه : ليس كالإنسان ، الذي هو مثل الحقّ ، شيء .
لأن الإنسان نسخة الحق والخلق ، والله تعالى عين الحق والخلق . فهو - أي الإنسان - موصوف بكل ما يوصف به الحق ، ومنعوت بكل ما ينعت به الخلق .
فهو المثل الذي لا مثل له ، وهذا معنى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[الشّورى : 11] .

فإن غلب عليك شهود الأحدية المنزّهة عن الكثرة ، انعدم وجود الخلق عندك ، وزال الظلّ والفيء .
لأن العالم ظلّ الله ، فيزول ؛ لأنك لم تشهد شيئا سوى الوحدة المحضة ، فلا ظهور للظلّ ، لأن الظلّ يحتاج إلى نور مفيض وظلام قابل للصورة المتوسطة بين النور وبين المحل ، وبظهور الوحدة ، ينعدم ذلك ؛ فلا كثرة بوجه من الوجوه ، لقولنا إن الوجود شيء واحد في كل موجود ، فلا تعدّد للوجود ، وإذن فلا تعدّد للموجودات .

لأن الوجود على الحقيقة ، هو عين الموجودات ؛ فظهرت الواحدية ، وبظهورها بطنت الكثرة ، فزال الظل والفيء المعبّر به عما سوى الله .

والسوى موجود ، والظلّ ممدود . فعليك بالفحص والبحث ، لتجمع في الحقيقة بين القول بأن الأمر لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[الشّورى : 11] وبين أنه "وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"[الشّورى : 11]
وحينئذ تجمع بين التنزيه والتشبيه . فعليك بالكشف عن هذه النكتة ، لتجدها إن شاء الله تعالى ، وقد شرحنا لك في هذه النبذة ، جميع ما في الباب الثالث من كتاب الفتوحات ؛ والله الموفق ، لا ربّ غيره .

*

الباب الرابع ما هذه المظاهر المشهودة إلّا عين الظّاهر فيها وهو الله

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب .
سرّ البدء اللطيف ، وما جاء فيه من التعريف . يريد : سرّ بداء العالم . واللطيف صفة سرّ البداء ، والضمير راجع إلى السرّ .
وسوف أنبّهك على مقدمة ، تعرف بها معنى كل ما يرد في هذه النبذة التي جمعت جميع ما في الباب الرابع من كتاب الفتوحات المكية .
وذلك : أن الله تعالى لما أحبّ في شأن ذاته البطوني ، أن يظهر في كنزيته ، لما يقتضيه شأن ذاته الظهوري من الظهور على حكم شؤونه الذاتية . فتشكّل وتصوّر بأشكال العالم وصوره ونسبه وإضافاته وأحكامه جميعا ؛ صورة ومعنى ، بطونا وظهورا ، فناء وبقاء ، عينا وحكما ، وجودا وشهودا .
فمثله تعالى في هذا المعنى - ولله المثلى الأعلى - كمثل النفس الناطقة في هيكل الإنسان ، إذا حدّثت نفسها بنفسها ، فتكون هي المتكلّمة والسامعة ، وهي عين كلامها ؛ لأنها تتصور لنفسها بصورة مفهوم ما تكلّمت به .
فهي الكلام والمتكلّم والسامع ، وكذلك الحق تعالى ، عين العالم المسمّى بالخلق ، وعين الخالق له المسمّى بالحق . يبدءان لأسمائه وصفاته ، ترتيبا تقتضيه كل صفة ، لما هي عليه في شأنها .
فلكل اسم مرتبة في ظهور العالم ، فهو ناظر إلى العالم ، من حيث تلك المرتبة والمقتضى ، لإيجاد الكون من جهة تلك الصفة .
فنقول - مثلا - إن الصفة العلمية أول متوجهة لإيجاد العالم ، وإن الصفة الإرادية أول متوجهة لتخصيص كل شيء على ما هو عليه من الهيئة والترتيب ، وإن الصفة القادرية أول متوجهة لظهور العالم في الحسّ .
لكن توجّه كل صفة من هذه الثلاثة المذكورة ، على ترتيب ذكرها ؛ فالعلم له التقدّم ، ثم الإرادة ، ثم القدرة ، وعلى ذلك فقس واحكم ، إلى أن تستوفي جميع الأسماء والصفات ؛ فإن أحكامها المتعلّقة أعيان وجودية ، يسمعها الكاشف ويراها .
فاعتبر ذلك حتى تستوفي مقتضياتها ، إلى أن يتمّ الأمر بظهور كل المراتب الكونية ، علوّا وسفلا ، لطيفا وكثيفا .

فتنبّه لهذه المقدمة ، تفهم جميع ما أراده الشيخ - رضي الله عنه - بقوله : إن العالم علامة .
يعني : أنه علامة على موجده تعالى ، يعرف هو - سبحانه - بالعالم - وتحقيقه ؛ أن كلّ وجه من وجوه العالم ، راجع إلى صفة من الصفات الإلهية .
وتقدير ذلك : إن العالم من حيث كونه موجودا ، أثر صفة اسمه الموجد ؛ ومن حيث كونه على هيئة مخصوصة ، أثر اسمه المريد ؛ ومن حيث كونه بارزا - من غير مادة ، ولا تعيّن - أثر اسمه القادر ؛ ومن حيث كونه مخلوقا ، أثر اسمه الخالق ؛ ومن حيث كونه مرزوقا ، أثر اسمه الرازق ؛ ومن حيث كونه مرئيا ، أثر اسمه البصير ؛ ومن

حيث كونه مسموعا ، أثر اسمه السميع ، وقس على ذلك ؛ فهذه الأسماء هي المظهرة لأعيان هذه الآثار ، وإن شئت قلت : هذه الآثار هي التي أظهرت هذه الأسماء .
وعلى الحقيقة ، هو واحد في واحد لواحد .
فلهذا قال : بدؤه ممّن فهو علامة على من .
يعني : إذا كان الحق عين العالم ، فمن أين بدأ العالم ؟ بل هو في نفسه ، كما كان عليه
فإذن : ليس هو علامة على شيء ، لأنه ما ثمّ غيره . فلا يقال إن الشيء الواحد ، يكون علامة على نفسه لنفسه .
إذ لا مغايرة في نفسه لنفسه ، فلا بدأ ، ولا ظهر ، ولا بطن ، ولا استتر ؛ إذ الحقّ هو الكل .
وإلى هذا المعنى ، أشار بقوله : ما استتر عين حتى يظهر كون . يعني : ما استترت ذاته ، ليظهر غيره .
ولما تحقّق الشيخ - رضي الله عنه - بشهود واحدية الحق تعالى في كثرة الموجودات ، وعاين كثرة تنوعات تجلياته في الأسماء والصفات ؛ قال : رأينا رسوما ظاهرة .
أراد بالرسوم ، الأسماء والصفات التي هي الظاهرة في العالم بحقائقها وآثارها .
ورأينا ربوعا .
يعني بذلك ، المظاهر الكونية . دائرة ، فانية لظهور الحق تعالى . وقد كانت تلك المظاهر الكونية ، التي يعبّر عنها بالسوى والعالم . قبل ذلك.

أي ، قبل شهودنا فيها أحدية الحقّ . عامرة ، لكوننا كنا نراها ، ونظنّ أن لها وجودا ؛ فكانت من حيثنا ، وجودية وناهية وآمرة ،
فسألناها : ما وراءك يا عصام ؟ .
تكلّم الشيخ على لسان حال الوجود .
فكلّ من نظر بعين اليقين ، وجد الله وراء الموجودات ، من حيث استنادها إليه الاستناد الإيجادي ؛
وإن شئت قلت : من حيث كونها مظاهر ، وهو الظاهر . ولأجل ذلك ، قال إن الحال **أجابه ؛ فقالت** : ما يكون به الاعتصام . الاعتصام هو الاحتفاظ ، فلولا نظر الله في العالم وجوده ، لعدم العالم ؛ فبالله عصمة العالم وحفظه .
ولهذا قال : فقلت ما ثمّ إلا الله وحبله ، وما لا يسع أحدا جهله . يعني : ما هذه المظاهر المشهودة ، إلا عين الظاهر فيها ، وهو الله .
وحبله الذي به الاعتصام ، هو صفاته الحاكمة بتنوع الموجودات .
فشبّه الاعتصام بالحبل ، للارتباط المعقول بين الأثر والمؤثر ؛ وعن ذلك كنّى بقوله « ما لا يسع أحدا جهله » لظهور آياته في مصنوعاته .

فقال ؛ يعني : لسان العالم . لولا الكثائف ؛

يعني : المخلوقات التي هي حجب على صانعها ، لأن الحجاب من طبعه أن يكون كثيفا ، وإلا لما حجب
.فلولا هذه الحجب الكثيفة ، ما علمت اللطائف . أراد باللطائف ؛ حقائق الأسماء والصفات .
ولولا آثارها . الضمير راجع إلى اللطائف ،
يعني : ولولا آثار الأسماء والصفات . ما ظهر منارها .
أي منار الكثائف التي هي المخلوقات على الإطلاق ؛
يعني : لولا العالم ، ما عرفت أسماء الحق وصفاته ؛ ولولا أسماء الله وصفاته ، لما ظهر العالم . فمن خبت ناره ، انهد مناره .
يعني : فكلّ مظهر سكنت ناره - لبطون تجلي الاسم الحاكم عليه - انهدم وفني من حيث الحسّ ، فصار له حضرة القدس ، على ما ؟ ؟ ؟ عليه ؛ لأنه كان ثمّ قبل ظهوره ، وصار إليه بعد بطونه .
فما ازدادت حضرة القدس بدخوله فيها ، وما انتقصت بخروجه عنها .
وما ينمّ به إلا الحسّ . يعني : وما ينمّ بوجود الموجودات ، إلا مراتب الحسّ .
لولا الحسّ . أي ، العالم المحسوس الدالّ على الله . بشهود الأثر . برؤية أثر الأسماء الإلهية ، والصفات الكمالية ، فلولا ذلك . ما عرف للطيف خبر . اللطيف هو الله ،

وتقديره : لولا الموجودات ، لما عرف الموجد سبحانه وتعالى .
<u>ولما فرغ الشيخ - رضي الله عنه - من الكلام على العالم عموما</u> ، خصّص بذكر الإنسان .
فقال : النّفس عمياء . يعني عن شهود كمال الله تعالى . للقرب المفرط.
حيث يقول الله تعالى :وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[ق : 16].
لأنه سبحانه عين النفس ، فجهلت النفس حقيقتها من أجل ذلك القرب ، ومن أجل ما تشهده الحواس من كثائف الحجب .
وظاهر الأمر : فصارت النفس بواسطة هذين الأمرين ، جاهلة بالله طبعا .
وهي ، يعني النفس . الصمّاء عن إدراك الوسواس .
أراد بالوسواس ، الخواطر الإلهية التي ترد على النفوس بالفطرة .
وإنما صمّت آذان النفوس عن إدراك هذه الخواطر ، لأن المادة حاكمة على النفس بالعقل والمقتضيات البشرية ، فامتنعت عن سماع ما يرد من الحق لأجل ذلك . وهي الخرساء فلا تفصح .
يعني : أن النفس صارت خرساء بالطبع الحيواني ، فلا تفصح عن سرّ من الأسرار الإلهية المودعة فيها ، لكونها بشرية بحكم الطبع في قيد الجسم وحصره .
وهي . يعني النفس ؛ العجماء . إنما اعتجمت النفس بفراقها ما في قابليتها من الكمالات ؛ وإنما فارقته لعدم اشتغالها به ، بسبب ما أخذها عنه من الأمور الحسيّة .
فلا تعقل النفس ما هي حاوية له من الكمالات الإلهية فتوضّح وتخبر عنه .

ولولا اشتغالها عن المعنى بالحسّ ، لظهر بالفعل ما هو باطن فيها بالقوة من أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال .
وإلى ذلك أشار بهذه الأبيات :
سرى اللّطيف من اللّطيف فناسبه * وبدا له منه الخلاف فعاتبه
اللطيف الأول هو النفس ، واللطيف الثاني هو ذات واجب الوجود .
يعني :
أن النفس على الحقيقة ، مخلوقة من نور ذات الواجب بذاته ؛ ولهذا وجدت فيها من الكمالات ، جميع ما وصفت الحقّ به - وقد بيّنا كيفية مضاهاتها للحق والخلق على التفصيل ، في كتابنا الموسوم " بإنسان عين الوجود ، ووجود عين الإنسان الموجود "
فمن شاء أن يعلم ذلك ، فليطالع فيه - وحوت من النقائص جميع ما في الوجود ؛ فجمعت من كلا وصفي الحقّ والخلق ، ما استوعب الأمر على ما هو عليه .
ولهذا قال « فناسبه » لأن الحقّ تعالى جامع لذلك ، فحصلت المناسبة بين النفس - التي هي روح العالم الإنساني - وبين الحقّ ، الذي هو روح العالم.

وأما قوله « بدا له منه الخلاف » فهو إشارة إلى ما يقع للنفس من النزول والركون إلى المقتضيات الأرضية التي لأجلها يكون العتاب ، وإليه الإشارة بقوله " فعاتبه " ، ثم قال :
وتوجّهت منه إليه حقوقه * فدعاه للقاضي العليم وطالبه

يعني : واقتضى الحال أن يتوجّه على النفس حقوق كثيرة لموجدها ، إذ للصانع حقّ على مصنوعه لا ينكره العقل طبعا ، والقاضي هو العقل ،
فعبّر عن إرجاع الحقّ للنفس إلى العقل - لتعرفه النفس - بقوله « فدعاه للقاضي العليم فطالبه» ، بأداء حقّ الصانع عليه .
ونعت القاضي - المعبّر به عن العقل - أنه عليم ، لأن العقل من طبعه درك الأمور كلها ، لما أودع الله فيه من مكنون علمه ، كما سبق بيانه .
فعندما رجعت النفس إلى مقتضى العقل ، عرفت بحكم العقل ، أن نزولها إلى مقتضى حكم الجسم وبال عليها ، فعبّر عن هذا المعنى بقوله : نادى عليه .
يعني : نادى العقل على النفس .
تجرّسا . التجريس ، التعزيز على سبيل الإهانة تهكّما إذ العقل يقضي أن يكون : هذا جزاء من عامل الجنس البعيد وصاحبه .
الإشارة بقوله "هذا " إلى النزول والانحصار والتقييد والعجز والاحتباس بحكم سجن الطبع ، فذلك جزاء كل نفس اشتغلت بالظاهر عن حكم الباطن ؛ لأنها تألفه وتنسى ذلك المعنى طبعا .
فما أنزلها عن التحقّق بحقائق الكمال ، إلا فعلها ، فإذن نزولها جزاء ما صنعت .

وعن الجسم ومقتضياته ، عبّر بالجنس البعيد . فنزول النفس إلى العجز ، لأمرين :
أحدهما ، العمل بمقتضى الجسم ؛ والثاني ، مصاحبة الجسم . فالأول عارض ، والثاني لازم .
فينبغي أن يسعى المرء أولا في زوال حكم العارض ، حتى إذا انفكّ عن الجسم ، حصل له اللازم أيضا ، فيخلص إلى الكمال المطلق من كل وجه .
وعن الرجوع عن المقتضيات البشرية عبّر بقوله :

ليتوب من سمع النّداء فيرعوي * عنه ويعلم أنّه إن جانبه
تظفر يداه بكلّ خير شامل * فاستعمل الإرسال فيه وكاتبه

اللام في « ليتوب » للتعليل ،
يعني : إنما نادى العقل مجرّسا للنفس ، لتحصل منها التوبة ، وهي الرجوع عن حكم الجسم ومقتضاه ، إلى الحقّ ؛ فتلزم مشاهدته منها فيها - ولتعلم النفس ، بما أوضحه العقل ، أنها إن جانبت الجسم - المعبّر عنه بالجنس البعيد - فتركت العمل بمقتضاه ، وخالفت أحكامه ؛ ظفرت يداها بالصفات الإلهية ، التي هي في قوة النفس وقابليتها ، فتستعمل الاسترسال في ذلك بشهودها لحقائقها الحقيقية ؛ لأنها عين المعبّر عنه بالذات الإلهية،
وإلى النفس أشار بقوله : هو اللطيف في أسمائه الحسنى ، وبها ظهر الملأ الأعلى والأدنى .
يعني : أن النفس المعبّر عنها بالذات ، ظاهرة في الأسماء الحسنى والصفات العليا التي ظهرت بواسطتها الموجودات ؛ فالضمير في قوله « بها » راجع إلى الأسماء الحسنى . وقد شرحنا لك في أول هذه النبذة ، عن كيفية كونها توسّطت في إيجاد هذا العالم .
وعبّر عن ذلك بقوله : لما تجاوزت تحاورت ، الأول بالجيم ، والثاني بالحاء المهملة .
يعني : لما حصلت المجاورة بين الأسماء الإلهية والصفات الربانية ، لأنها كانت في محلّ واحد فخاطبت بعضها بعضا بحكم المقتضى ؛ وعن ذلك عبّر بقوله « تحاورت » . وقد قلنا لك إنها طلبت ظهور آثارها ، وإن الكلام على الحال .
وذلك واقع صورة في الآزال ، علم تحقّقه .
وعن لسان حالها المطالب بمقتضى آثارها ، **عبّر بقوله :** ولما تكاثرت ، تسامرت . فرأت أنفسها على حقائق ، ما لها من طرائق .
يعني : رأت الأسماء والصفات أنفسها على حقائق مختلفة ، فلتلك الحقائق ظهور في الوجود .
فكان الأمر : سماؤها ما لها من فروج .
كنّى عنها بالسماء ، لأن السماء لها العلو على الأرض ، كما أن المؤثّر له العلو على ما أثّر فيه ؛ وإنّي بقوله وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ(6) [ق : 6] عن عدم ظهور مؤثراتها في ذلك الموطن ، فاقتضاه حالها ؛

وعن ذلك عبّر بقوله : فطلبت أرضا تنبت فيها من كل زوج بهيج . يعني : طلبت الأسماء والصفات الإلهية ، المعبّر عنها بالسماء ، أرضا ؛ أي محلا تظهر فيه آثارها .
وعن ذلك عبّر بقوله وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(7) [ق : 7]
يعني : فاشتاقت أن تظهر هذه الأسماء والصفات ، كلّ معنى لطيف من معاني آثارها ، في الموجودات .
فقالت . أي لسان حال الأسماء والصفات عند اقتضاء الظهور : المفتاح في النكاح .
يعني : فتح باب الإيجاد ، بظهور الكون في تناكح الأسماء ، أي توالج بعضها في بعض ، لظهور هذا العالم . فعبّر عن دخول حكم الأسماء بعضها على بعض ، بالنكاح .
ولا بدّ من ثلاثة ، ليصح النكاح المعنوي . ولأجل ذلك بني عليه النكاح الصوري ، فلا يصحّ النكاح في ظاهر الأمر ، إلا بثلاثة .
وهم : وليّ ، وشاهديّ عدل ، لهذا القضاء الفصل .
فالثلاثة المتصدرة المشروطة في نكاح الأسماء الإلهية ، هم :
الاسم الذاتي ، وهو الله .
والاسم الرحمن ، لأنه يرحم أسماءه وصفاته فيظهر آثارها .
والاسم الرحيم ، لأنه به ترحم الموجودات . هذا نكاح أقدسيّ ، وثمّ نكاح قدسيّ. !
والثلاثة المشروطة في الأسماء ، لنكاحها الثاني وتداخل بعضها في بعض لظهور العالم كله - أعلاه وأسفله ، أوله وآخره - هو : العلم والإرادة والقدرة .
فالعلم هو محل ظور المعلومات ، ومنصّة وجود الأسماء والصفات .
والإرادة هي المخصّصة لكل موجود ، على حكم ما يقتضيه حال الكمال .
والقدرة هي المبرزة له من العلم إلى العين ، فهذه شروط صحة النكاح المعنوي الأسمائي الأزلي الأبدي .
فالنكاح الأول ، لتعلّق الأسماء والصفات بحقائقها ، ولكمال ظهورها .
والنكاح الثاني، لظهور الموجودات وتحقيق بروزها، ليتم به مقتضى الكمال، فافهم .

ولما كانت الكلمة الإلهية ، التي هي مجلى العلم والإرادة والقدرة ، وهي : كن ، متعلقة بالمعلوم ، لشمول معاني الكمال له تعالى ، لقوله عزّ وجلّ :إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(40) [النّحل : 40] .
فالشيء هو معلوم بالصفة العلمية ، ومراد بالصفة الإرادية .
وكلمة كُنْ[النّحل : 40] هي المتعلقة بعين ذلك المعلوم في العلم ، وصفة القدرة هي المخرجة له من العلم إلى العين .
عبّر عن ذلك بقوله :
فقال العليم ، يعني الصفة العلمية أعطت أنه : لا بد من كلمة كُنْ[النّحل : 40] لظهور هذه الأعيان الثابتة في العلم ، وخروجها من محلها إلى العالم العيني .
وعن كلمة كُنْ[النّحل : 40]

عبّر بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم . ومن ثمّ قال بعض العارفين : « بسم الله الرحمن الرحيم من العارف ، ككن من الله . . »
وسوف يذكره الشيخ فيما يلي في هذا الفصل - إن شاء الله تعالى - ولولا أن الكلام يأتي على بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(1) [الفاتحة : 1] في أثناء هذا الباب ، لتحدثنا هنا حسبما أراده الشيخ رضي الله عنه .

فهذا يا وليّ ، الشاهدان والوليّ .
لما كان الاسم الله ، والاسم الرحمن ، والاسم الرحيم ؛ موجودا في البسملة .
أشار الشيخ رضي الله عنه إلى ذلك - حسبما ذكرنا ذلك آنفا - فجعل الوليّ هو الاسم الله ، والشاهدان هما الرحمن والرحيم ، على النمط السابق .
ففي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(1) [الفاتحة : 1] سرّ النكاحين المعقودين لظهور حقائق الحقّ وحقائق الخلق . . فتأمّل ، ترشد إن شاء الله تعالى .

قال الشيخ رضي الله عنه : فهذا . يعني ما عبّرنا عنه من لسان حال الكمال في الأزل : كان أول تركيب الأدلة . أراد بالأدلة ؛ المصنوعات وبروزها .
يعني : بذلك المعقول آنفا، كان سبب تركيب المصنوعات وبروزها على لسان العموم.
وأما على الخصوص ، فالأدلة هي الأسماء والصفات الإلهية ؛ لما اقتضاه الشأن الإلهي ، من حيث ما هو الأمر عليه ، ليكون ذات واجب الوجود ، منعوتا بنعوت الكمال والجلال والجمال.
فركوب كل اسم علما ، على صفة منصّته ؛ وتركيب كل صفة منصّة ، على شأن إلهي ، فقال تعالى :وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى[الأعراف : 180] .
لأن الشيء في نفسه ، لا يحتاج إلى اسم يميّز به نفسه لنفسه .
هذا إذا كان ثمّ موجود آخر ، فكيف إذا لم يكن ثمّ غيره ؟ فبالأولى .
ولما لاح هذا المعنى لبصائر المعتزلة ، من حيث أنهم لم يشعروا به ، ذهبوا إلى أن القدم للذات فقط ، ليس لشيء من الصفات عندهم قدم في القدم ؛ فقالوا بأن جميع الأسماء والصفات الإلهية مخلوقة .
وفاتهم نصف المعرفة بالله ، كما فات من قال بأنها قديمة على الإطلاق ، لقدم الذات ، ولم يجمع بين الحكمين ، إلا عارف بالله .
ولا يكون ذلك ، إلا لمن أشهده الله حقائق الأشياء ، فعرفها ، وعرف مجاليها - على ما هي عليه جملة وتفصيلا - فعرف كيف ينسب كل اسم أو صفة إلى الله ، فيحكم بأنه قديم ؛ وكيف ينسبه إليه ، فيعرف بأنه - أي الاسم والصفة - محدث .
ولم يقف على وجه دون آخر ، لأن الحقّ هو الجمعية .
وبعد هذا ، عرضت الشّبه المضلّة .
يعني : عرضت على العقول أمور ، يعطي بعضها الاشتباه بالحقّ ، فضلّت أهل تلك العقول عن الطريق الإلهي الذي هو له تعالى . على أن الطريق المضلّة ، أيضا ، له

وإليه ، لكن هذه على العموم وبحكم الوسائط البعيدة ، وتلك على الخصوص وبالوسائط القريبة ، وقد شرحنا لك في هذه النبذة جميع ما أراده الشيخ رضي الله عنه ، ونبّه عليه في الباب الرابع من كتاب الفتوحات .
والله الموفق .

*

الباب الخامس الأمر دوريّ يعود إلى ما بدأ!

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمنه هذا الباب من فنون العلم المشار إليه آنفا . سرّ كن والبسملة ، فيمن علّله .
قد قلنا لك آنفا ، إن البسملة عبارة عن كلمة كُنْ[النّحل : 40] ،
لأن الله تعالى كما أظهر الموجودات بواسطة الكلمة ، كذلك أظهر سرّ كتابه الكريم بواسطة البسملة .
فالكتاب كله ، نسخة جميع الوجود ؛ والفاتحة نسخة الإنسان ، والبسملة نسخة كلمة الحضرة .
ولهذا ، سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم البسملة في ابتداء الأمور ، ليكون التقدير فيه : كل فعل يفعله عقيب البسملة ، بالله .
فمن بسمل عند الأكل ، كان تقدير حاله أن يقول : بالله أشرب ، فلا بد من تقدير الفعل بعد البسملة بلسان الحال ، لتعلّق الباء من بِسْمِ اللَّهِ [الفاتحة : 1]؛ و « اسم » زائدة ، والمراد الله .
كما في قول :سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى(1) [الأعلى :1]. **والمراد بذلك :** سبّح ربّك .

وقد وضعنا للبسملة كتابا ، شرحناها فيه أيام البداية ، وسميناه بالكهف والرقيم في شرح بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(1) [الفاتحة :1].

وهذا الكتاب المذكور ، أول كتاب صنّفناه في علم الحقيقة ، فالحمد لمن جعل أول تصنيفاتي في :بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1)[الفاتحة : 1] .
ليقع كمال النسبة الإلهية في إظهار الحقائق صورة ومعنى.
ولولا ما شرحناه من أمر البسملة ، لأوردنا لك ذلك كله ، على التفصيل والإجمال ، وزبدة الأمر كله ؛ رجوع أمر جميع أفعال العباد ، إلى أنها أفعال لله .

فلذلك : قال الحلّاج ، وإن لم يكن من أهل الاحتجاج ، بسم الله منك بمنزلة كن منه .
الحلاج رضي الله عنه ، هو الحسين بن منصور الحلاج .

قال الشيخ إنه ليس من أهل الاحتجاج ، **لأنه لما تحدّى** وقال **" أنا الحقّ "** قتله سيف الشريعة ؛ فلو امتنع بمقتضى صفات الحق ، لم يستطع أن يقتله أحد ؛ فكانت حجّته ثابتة ودعواه صحيحة عند الغير .
كما جرى لأبي يزيد رضي الله عنه في قوله : **سبحاني، ما أعظم شأني وأعزّ سلطاني!**
وفي قول الشيخ عبد القادر رضي الله عنه : **معاشر الأنبياء ، أوتيتم اللقب ، وأوتينا ما لم تؤتوه !**

وفي قول الشيخ أبي الغيث بن جميل رضي الله عنه: **خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله !**
وقوله حين قال له الحكمي رضي الله عنه : ما حالك ؟ قال : **أصبحت أحيي وأميت ، وأفعل ما أريد ، وأنا على كل شيء قدير .**

فكلّ من هؤلاء السادة ، منع بحاله أن يسطو عليه أحد ، فأقام حجّته .
وكان الحلاج دون هذه المرتبة - ولو كان على الحقّ - ولهذا أخذته سيوف الشريعة .
ولا مؤاخذة على من قام عليه ، لأنهم قاموا بالحق ؛ ولو كان حقّه أعلى من حقّهم .
ونهاية الأمر ؛ إن الذين فعلوا هذا الفعل ، إذا ظهرت عليهم الحقائق ؛ نكّسوا رؤوسهم ، وآمنوا بقوله .
ولولا الحقيقة ، ما أخذته سيوف الشريعة ؛ لأنه لما طلب ظهوره بالربوبية في عالم العبودية - وذلك أعزّ من وجود النار في قعر البحار - أطلقه لسان الوقت ، عن قيد الهيكل الجسماني ، ليتحقّق بما ادعاه في العالم اللائق بتلك الدعوى ، فجرى عليه ، ما جرى غيره من الحقائق على الحقائق ؛ لئلا يدّعي هذا المقام من ليس له ذلك .

ولو كان متحقّقا بذلك كمال التحقّق ، كما كان عليه غيره من الكمّل المذكورين ، لامتنع بحقّ صفات الربوبية عن تلك القتلة ، كما امتنع غيره . .
فكان الحلّاج على بيّنة من الله ، ولو لم يكن له شاهد تلك البيّنة ؛ وكان من ذكرناهم من الكمّل ، على بيّنة من الله ، ويتلوه شاهد منه .
ولهذا ، قال الله تعالى :إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ] لقمان : 19] .
يريد بذلك ، كناية عن حال المريد إذا تكلّم قبل أوان الكلام ؛ وفي المثل السائر عند الامتحان يعزّ المرء أو يهان .
فلكل مقام مقال ، لا يصح دعوى المتكلّم عن ذلك ، إلا إذا تمكّن فيه .

فلو كان الحلّاج رضي الله عنه ، واجد الحقيقة ، ما قال غير متمكّن بالحال ؛ فتعجّل وتكلّم ، ولو تأمّل في قوله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام :لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ] القيامة : 16] الآية ، لكان ، كغيره من الكمّل الذين قال الله في حقّهم :لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ] الأنبياء : 27] الآية
فالكامل يعمل بأمر الله ، كلّ ما يعلمه الله ، والعارف يعمل بالله مطلقا ؛ لا يعلم هذا الأمر المخصوص - الذي يتوجّه من الحقّ إلا الكامل - إلا إذا كان عارفا كاملا ، وإلا فهو محجوب عنه .
ولما كان الوليّ فاعلا بالله ، لتحقّق ذاته بمعنى صفاته ؛ كان بِسْمِ اللَّهِ] الفاتحة : 1] منه ، بمنزله كُنْ] النّحل : 40] من الله .
إذا قارنت ذلك منه حركة إرادية لصدور ما يريد في الخارج ، كما أن كلمة كُنْ] النّحل : 40] من الحقّ مقارنة لإرادته ما يكون على الوجه المخصوص المراد .

ولهذا ، قال الشيخ رضي الله عنه : فخذ التكوين عنه . الضمير في " عنه " راجع إلى اسم الله المذكور في البسملة ،
والمراد : خذ علم كيفية التكوين ، عن الله المكوّن ؛ فقل للشيء كُنْ[النّحل : 40] فيكون ، كما هو القائل تعالى لكل شيء .
وعن ذلك عبّر بقوله : فمن تقوّى جأشه ، أي قلبه ؛ واستدار عرشه ، باستوائه بذاته على عرش أسمائه وصفاته ؛ وتمهّد فرشه ، بتمكنه من التحقّق ، صورة ومعنى ؛ فظهر أثر اسم باطنه على ظاهره ،
فكان لجسمه جميع ما هو لروحه -التي لها ما للحقّ تعالى - كان متصرّفا في العالم ، تكوّن الأشياء بكلمته لها كُنْ[النّحل : 40] كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال كن ، ولم يبسمل ؛ فكان ، ولم يحوقل.

أشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم ، لشيخ رآه من بعيد : **« كن زيدا »** فكان ذلك الشيخ زيدا ، أخو عمر بن الخطّاب ، أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترقّب وصوله ؛ وحكايته مشهورة . "" في الحديث « كن أبا خيثمة » صحيح مسلم وصحيح ابن حبان وروى القصة غيرهما. ""

والمراد : أن من كان متحقّقا بربه - روحا وجسما ، وصورة ومعنى - تكوّن ذلك الشيخ فصار زيدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :كُنْ[النّحل : 40] .
ولم يقل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(1) [الفاتحة : 1] .
لأن بِسْمِ اللَّهِ[الفاتحة : 1] مرتبة العارف ، وكُنْ [النّحل : 40] مرتبة الله ،
والمحقّق هو اللَّهِ[الفاتحة : 1] ليس المراد بهذا الاسم غير المحقّق ، ولا غير الله تعالى .

وقوله : فَكانَ[الأعراف : 175] ضميره راجع إلى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم :كُنْ[النّحل : 40] وفاعل « لم يحوقل » راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : لم يقل لا حول ولا قوة إلا بالله .
لأن ذلك مرتبة العارف الذي رجع إلى الله تعالى بالفناء عن صفات نفسه وأفعالها ، بل وعن ذات نفسه ؛ والله راجع إلى المحقّق ، رجوع العارف إلى الله .
فالعارف قائم بالله ، والله قائم بالمحقّق .
فلهذا ، لم يقل المحقّق لا حول ولا قوة إلا بالله ، كما يقول المحقّق .
فمن ذاق ، من شراب التمكين بالذات في تحقيق إظهار معاني الأسماء والصفات ؛ ضاق مسلكه ، لأنه حينئذ يسير بالذات ، والذات ظلمة لا طريق فيها لسالك .

وإلى هذا المعنى أشار سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني ، رضي الله عنه ، بقوله :

كلّ الأولياء لمّا وصلوا إلى القدر وجدوه مصمتا فوقفوا ، إلا أنا ، فتحت لي فيه روزنة ، فولجت فيها ، فدافعت أقدار الحقّ بالحقّ . .
هذا معنى ؛ وإن شئت قلت : من ذاق ألوهية الحقّ في الحقّ ، ضاق عن قبوله بحكم الخلق بالكلية ؛ فإن في ذلك فقدانه للربوبية ، إذ ليس من الكمال ترك الربوبية للعبودية ، فيضيق المحقّق عن كمال التنزيل إلى العالم الخلقي من كل جهة .
فإذن : يكون حقّا مع حقيقته بالذات ، وخلقا مع خليقته بالأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات والنسب والإضافات ، فمعيّته مع الحق والخلق ، خير معيّة ، الحق سبحانه وتعالى ! ولم يقر بهذه النكتة - حالا - إلا كامل في هذه الدار ، وحقيقة الأمر ؛ رجوع الكلّ إلى هذا المعنى.

وقد أشار الشيخ رضي الله عنه إلى ذلك بقوله :
وإذا التفّت الساق بالساق : فإلى ربك المساق ، وإليه ترجع الأمور ، إذ كان منه الصدور .
معناه : إذا التفت والتحقت الذات الإنسانية بالذات الرحمانية ، بشهودها أنها عينها - لا غيرها - من كل جهة ، وبكل اعتبار ، وعلى كل حال ، وفي كل وقت على الدوام .
فإلى مقام الربوبية المحضة ، يكون مساق هذا الإنسان .
وحينئذ ، ترجع إليه - أي إلى الإنسان - الأمور ؛ لأنه الحق الذي كان منه البداية والصدور . إذ الأمر دوريّ ، يعود إلى ما بدأ .

ولهذا ، قال الشيخ رضي الله عنه : لا تبسمل ، وقل بكن ، مثل ما قاله يكن .
بكن الأولى ، بالباء الموحدة .
ويكن الأخيرة ، بالياء المثناة من تحت ؛ وهذا جزاء لقوله : قل .
والمعنى : لا ترجع بك إليه ، كما هو المقصود في البسملة ، بل ارجع بالأمر كله إليك ، وقل كُنْ] النّحل : 40] .
لما تريده ، كما يقوله الحقّ ، يكن ما شئت كما شئت .
فإليه رجوعنا ، لا إلينا . أي : فإلى مقام الربوبية رجوعنا ، لا إلى مقام العبودية .
فالربوبية لازمة لذواتنا ، والعبودية عارضة بحكم المحل .
وترتيب الحكمة ، هو المقتضي للحكمين في المحلين ؛ من أجل هذه الذات الواحدة الكاملة بجميع تلك المعاني .
فكن عين الذات الإلهية من كل جهة ، وبكل اعتبار ، وعلى كل حال ، لا تخرج عن ذلك طبعا . تكن ، عينه . . بإظهار الأثر من نفوذ كل أمر ، وإدراك كل علم . وما يلقّاها إلا الذين صبروا ،وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)]فصّلت : 35] .
وقد رمزت لك في هذه النبذة ، جميع ما صرّح به الشيخ في الباب الخامس من كتاب الفتوحات المكية . فتأمله ، ترشد بمعرفته إن شاء الله تعالى .

الباب السادس جرى بنا جواد البنان فى هذا البيان حتّى أظهر ما لم يخطر إظهاره فى الجنان

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب من فنون العلم المشار إليه أولا . سرّ الروح وتشبيهه بيوح .
الألف واللام في الروح ، للعهد - وتقديره : سرّ الروح الكلية المشرقة من الهياكل الجزئية ، التي يصحّ وقوعها على كل فرد من أفراد هذا النوع الإنساني .
وتشبّهت هذه الروح بيوح ، وهو اسم من أسماء الشمس ، والمراد به هنا الحق تعالى ، لأنه نور السماوات والأرض .
فالإنسان ، هو « المثل » الذي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشّورى : 11]. ، في الأرض ولا في السماء ، لكونه نسخة كاملة جامعة شاملة .
وقد صرّحنا في كتاب « الكمالات الإلهية » عن حقيقة هذه النسخة وكيفية معناها ، وكشفنا عن ذلك أيضا على التفصيل - بعبارة مبسوطة - في كتابنا الموسوم " بإنسان عين الوجود ووجود عين الإنسان الموجود " فمن أراد تحقيق هذه المعرفة ، فليكشف عن محلها من هذين الكتابين . .
وسأذكر لك من ذلك طرفا جامعا ، وهو :
إن الله تعالى ، لما أحبّ الظهور من ذاته لذاته ، بمقتضى ذاته ؛ قسّم ذاته قسمين - من غير تعدّد في العين - **فسمى أحد القسمين بالواجب** ، والقديم ، والرب ، والفاعل .
وسمى القسم الثاني بالممكن ، والمحدث ، والعبد ، والمنفعل .
فأول ما أظهر من ذلك القسم الثاني ، محل حكميّ سماه بالهباء والهيولى والقدرة ؛ لأن العالم كله متحيّز ، ولا بد للمتحيّز من مكان يحلّه .فإن كان المكان مخلوقا ، فقد دخل في حكم العالم ، ولا بد له من مكان ؛ هكذا إلى أن يتسلسل ، أو يدور ، أو ينتهي لمحلّ حكم لا يقال إنه خلق ، (لئلا لغيره) « 1 » ؛ كما أن غيره لا يكون ظرفا له .

فالهباء ، هو الحقّ المخلوق ، وتقيّد الحقّ هنا بالخلقية في هذه المرتبة ، من أجل ذلك الانقسام .
وهذا المعنيّ بالهباء ، هو الهيولى المعبّر عند المحقّقين عنها بالعقل الأول والروح المحمدية والقلم الأعلى .
فكانت الحقيقة المحمدية ، أول مخلوق . وكانت على النسخة الإلهية، صورة ومعنى.
أما من حيث الصورة ، فكما أن الوجود المخلوق صورة الحقّ ، والحقّ روحه ؛ ذلك الإنسان ، قد خلق الله فيه نسخة كل شيء من صور الموجودات وحقائقها - جملة وتفصيلا - فهو على صورة الخلق ، لأن العالم صورته .
وأما كونه على النسخة المعنوية للحق - أيضا - فلأنك تجدك قابلا لكل اسم وصفة على التمام والكمال ، فقل في الأسماء الذاتية أولا إنك **« أحد »** ذا أحديّة غير مجهولة في كل شيء ، لأنها عبارة عن صرافة ذات الشيء ، بالنظر إليه من حيث هو ذاتيّ . .

فمتى عرفت أنك هو ، كانت هذه الأحدية - التي ذكرتها لك - نفي أحدية الواجب بذاته ؛ وقس على ذلك .
فليس شيء من تجليات الأسماء والصفات ، أعلى من تجلّي الأحدية ؛ ولعزّتها ، منع أهل الله أن يكون لغير الله قدم في تجلي الأحدية .
وسرّ المنع ، أن الأحديّة - من حيث هي أحديّة - تقتضي عدم التعدّد فيها من كل وجه وبكل اعتبار ، فكيف لخلق فيها قدم مع حقّ ؟
وذلك مشعر بالتغاير والإثنينية ، وهذا محال غير ممكن في تجلّي الأحدية .
فإذا قد صحّت لك نسخة منها ، فبالأولى أن يصحّ لك جميع ما تحتها من الكمالات المعبّر عنها بالأسماء والصفات .
فأنت الحيّ ، وأنت العليم ، وأنت القدير ، وأنت المريد ، وأنت السميع ، وأنت البصير ، وأنت المتكلّم .
وهذه السبعة ، هي أمهات الكمال وأئمة الأسماء والصفات ؛ قد سميت بها ظاهرا ، وسوف أكشف لك عن مواقع نجومها باطنا :
أما الحيّ ؛ فأنت متصف به لأن الحقّ سبحانه وتعالى ، كما أنه عين الوجود الساري في أعيان الممكنات ، كذلك أنت سار في أعيان الموجودات بهمّتك ؛ ألا تراك إذا افتكرت في السماء ، كيف تسري روحك فيها ؟ وفي الأرض ، وفي جميع ما تفكر فيه ، أنت كذلك سار فيه بروحك ؛ فحياتك هي القائمة بحياة كل ما سرت فيه .

وأما العلم ؛ فأنت متصف به من حيث عقلك ، لأنه عين علم الله به وبمعلوماته ، فهو المحيط بالحقّ والخلق ؛ ألا ترى إلى عقلك ، كيف عرفت به الحقّ والخلق ؟
فلولا أنه الصفة العلمية الإلهية ، لما اتسع لمعرفة الحق تعالى .
وسبب ذلك ، أنك لا بد أن تطلق اسم الحق في علمك على شيء ، تضيف إليه ما هو للحق من صفات الكمال ، وذلك الشيء الذي أطلقت هذا الاسم عليه ، هو في عقلك معلوم لك ، وهو عين الحق تعالى ، الذي أضفت إليه ما أضفت من صفات الجمال والجلال والكمال ؛ فلو لم يكن عقلك ، عين الصفة العلمية الإلهية ، لما ظهر هو فيها ؛ لأنه سبحانه ليس له محل إلا العلم . . وقد عرّفت بذلك أسرار كثيرة .

إن كنت من أهل الله ، فقس بالإرادة والقدرة على ما ذكرت ، وتأمّل هل تجد حقيقة هذين الوصفين لك في حال تصوّرك للأشياء في مخيّلتك وتخيّلك ، فتتكوّن كما تريد أم لا ؟
ومتى عرفت ذلك ، لم تفتك معرفة السميع والبصير والمتكلم منك ، وتتحقّق هذه المعرفة .
فيجب عليك ، أن تسعى في زوال الموانع لك عن تحقيق ما تجده من كمالك ، ليظهر جسمك بما هو لروحك .

فإذن : تصوّر ، في العالم وتكوّنه ، ما كنت تصوّره في العالم الخيالي ؛ تستبرزه مشهودا للحسّ ، كما كان مشهودا للخيال ، وبذلك تعرف أنك
المعبّر عنه بمسمى الأسماء الحسنى والصفات العلى !
جرى بنا جواد البنان في هذا البيان ، حتى أظهر ما لم يخطر إظهاره في الجنان ، من كل علم لا يسعه الكيان ؛ فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما كنا بصدده من شرح هذه الكلمات الحسان .

قال الشيخ رضي الله عنه : أشرقت أرض الأجسام بالنفوس ، كما أشرقت الأرض بأنوار النفوس .
لما أظهر الشيخ رضي الله عنه - فيما سبق - أن الإنسان نسخة للحق ، أراد أن يظهر كونه نسخة للخلق ؛ فشبّه روحه بالشمس التي هي روح العالم الدنياوي ، وشبّه الإشراق بالإشراق ، لأن النفس الجزئية متصرّفة في الهيكل الإنساني ، ومدبّرة له ؛ كما تتصرّف الشمس في العالم الدنياوي ، وتدبّره على مرّ الدهور .

وكلّ من النفوس والشموس ، عين كلّ على الحقيقة ؛ إذ هذه الصورة كلها ، راجعة للوجه الواحد الظاهر في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير .

فلهذا ، قال الشيخ رضي الله عنه : وإنما لم تفرد العين ، لأنها ما أشرقت ، إلا بما حصل فيها من نور الكون ، وإن كان الأصل ، ذلك الواحد ؛ فليس ما صدر عنه بأمر زائد ، فعدّدته الأماكن ، لما أنزل نفسه فيها منزلة الساكن .
زبدة هذا الكلامه ، وخلاصة هذه المسألة : أن الله تعالى ، هو المتجلّي بأعيان الموجودات على حسب ما تقضيه قابلية كل هيئة لكل موجود ، كما أن الصورة تظهر في كل مرآة بحسب تلك المرآة ؛ فاختلفت الصور المرئية لاختلاف المرائي ، وحقيقة الصورة واحدة كما أن الحق تعالى واحد متعدّد بحسب تعدّد الموجودات ؛ وبالحقيقة ، لا تعدّد ، لأن الشيء الواحد إذا تعدّد باعتبارات كثيرة راجعة إليه ، هو واحد غير متعدّد في نفسه .
وهذه الاعتبارات هي الأسماء والصفات ، التي هي أعيان الممكنات ، وإلى ذلك ، أشار بقوله : فللحقيقة رقائق ، يعبّر عنها بالخلائق .

أطلق هنا لفظ « الحقيقة » والمراد بها : الحقيقة الإلهية .
لها " رقائق " أي معاني كمالية ، هي أعيان الأسماء والصفات المظهرة لحقائقها في ذوات الموجودات ، على سائر النعوت والنسب والإضافات والاعتبارات ؛ فهي هوية شيء واحد ، من كل الوجوه بالذات ،
وقد شرحنا في هذه النبذة ، جميع ما تضمّنه الباب السادس من كتاب الفتوحات المكية ؛ فتأمّل ذلك ، أرشدك الله للصواب ، وعلّمك الحكمة وفصل الخطاب.

الباب السابع الجسم هو المظهر للرّوح الّتى هى النّور المظهر للأشياء كلّها

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب من أنواع العلوم : سرّ الكيف والكم ، وما لهما من الحكم .
لما كان السؤال بكيف وكم ، من لوازم العالم المحسوس ، الذي هو منصّة الأجسام ، ومظهر الكثافة والأجرام .
عبّر بهما عن الجسم الكلّي ولوازمه ، والنفس الكلية وعوالمها .
فسرّ ظهور العالم الجسماني ، هو لتحقّق الإنسان بالشأن الرحماني ، حتى يظهر بالفعل في صورة جزئية مخصوصة كاملة النشأة ، ما هو ثابت بالقوة في حقيقة الوجود الكلّي الجامع ؛ لتكون تلك الصورة للوجود الكلّي ، كالروح للهيكل الحيواني ، وكالمعنى للفظ ، وكالملك للمملكة . .
فلهذه الحكمة ؛ أول ما خلق الله من عالم الأجسام ، العرش .
وجعله محيطا بالمحيطات كلها، كما يحيط الجسم الإنساني بجميع ما حواه هيكله المخصوص.
واستوى سبحانه على العرش ، استواء مخصوصا ، هو عليه من غير تغيير لشأنه الذي كان له قبل خلق العرش وما حواه .
وذلك الاستواء - في ضرب المثل - كاستواء الروح على الجسم ؛ فالجسم الجزئيّ عرش جزئيّ للروح الجزئية ، والجسم الكليّ عرش كليّ للروح الكلية ، المعبّر عنها بالحقيقة المحمدية من حيث تعيّنها ، وبالحقيقة الإلهية من حيث عينها .
ولا شك أن الكليّ صادق على الجزئي .
فاعرف بما ذكرته لك ، من أنت ؟ وما محلّك ؟
تعلم حينئذ أن جسمك ، بل الجسم الكليّ : هو البيت المعمور بالقوى .

القوى ، عبارة عن الملائكة الموكّلة بتدبير العالم الكبير ، كما أن القوى الحيوانية موكّلة بتدبير جسمك ؛ الذي هو العالم الصغير بالنسبة إلى الجرم ، لقوله تعالى :لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ] غافر : 57] الآية ،
وأما بالنسبة إلى القدرة ؛ فإنك أنت العالم الأكبر ، والسماوات والأرض بما فيها ، هو العالم الأصغر، لقوله تعالى :وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ] الجاثية : 13].
فالسماوات بما أظلّت ، والأرض بما أقلّت ، مسخّرة لك .
لكونك أعزّ قدرا ، وأعظم فخرا ؛ ولهذا تفنى السماوات والأرض يوم القيامة ، وأنت باق إلى أبد الآبدين .
فجسمك الذي هو البيت المعمور ، بقواك التي هي ملائكة تسخيرك ؛ هو العرش الكريم . . إذ لا موجود أكرم على الله منك .

والجسم الكليّ هو العرش المحيط ، لأنه جامع للموجودات الجسمانية ، وليس وراءه إلا عالم الجبروت .
وسيأتي الكلام على العرش العظيم والعرش المجيد ، في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله .
إعلم أن الشيخ رضي الله عنه ، أراد أن يبين لك في هذه النبذة ، سرّ خلق العالم .
فبدأ بذكر العرش ، لأنه أول متعيّن في الصورة ، وإليه الإشارة بقوله : والذي كان عليه الاستواء .
إشارة إلى قوله تعالى :الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(5) [طه : 5] .
وقد كان الشيخ رضي الله عنه فيما مضى - وبيّنّاه لك - أن الروح المعبّر عنها بالحقيقة المحمدية ، وبالعقل الأول ، وبالقلم الأعلى ؛ هي أول مخلوق .
وهي - أعني هذه الروح - كلية وأرواحنا جزئياتها .
فلهذا المعنى ، أشرقت تلك المعاني الكمالية الموجودة في الحقيقة المحمدية ، في ذواتنا . وإلى هذا المعنى ، أشار بقوله تعالى :لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [الأحزاب : 21]. وقوله تعالى :قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ[الممتحنة : 4].

وإلى هذا الإشراق في الأجسام أشار الشيخ رضي الله عنه بقوله :
محل الظهور المشرق بالنور . يعني : أن العالم الجسماني محل كمال الظهور الإلهي ؛ لأن الجسم الإنساني ، آخر ظاهر من مراتب الوجود .
ولهذا ؛ كان الإنسان البشري ، نوع الأنواع على الإطلاق ؛ وكان الإنسان الحقيقي ، جنس الأجناس .
لأنه أول كل موجود ، فحاز رتبة الإحاطة ؛ **فهو : الأول والآخر .**
وكان الإنسان مشرقا بأنوار الكمالات ، معنى وصورة .
فإشراقه المعنوي ، هو حقائق قواه المعبّر عنها بالعقل ، والخيال ، والهمّة ، والمصوّرة ، والإرادة . . وأمثال ذلك .
فهذه القوى منه ، هي عين الملائكة المدبّرة للعالم الكبير ؛ فالعقل من مظاهر جبريل ، والخيال من مظاهر إسرافيل ، والمصوّرة من مظاهر عزرائيل ، والإرادة من مظاهر ميكائيل . . وقس على ذلك ، باقي قواه المعنوية .
وأما إشراقه الصوري ؛ فالعينان لعالم جسمه ، كالشمس والقمر للعالم الكبير .
واللمس والشمّ والذوق والأذنان ، كالخمس الكواكب الأخرى من العالم الكبير . .
فأشرق كلا العالمين الجسمانيين بالنور .
وعلى الحقيقة ؛ العالم الجسماني هو واحد ، لأنه عبارة عن العرش وما حواه ، فهو محل الظهور الإلهي ، وهو **« المشرق بالنور »** أراد بالنور ، عبارة عن حقائق الكمال الظاهرة فيه ، من تجليات الحق تعالى .

وعن الجسم عبّر بقوله : كلمة الحق .

يعني : أنه نتيجة كلمة كُنْ[النّحل : 40] لأن الأرواح متعيّنة في العلم الإلهي ، فهي هناك أعيان ثابتة ، قديمة بقدم الحقّ .
والجسم ، هذا المحسوس ، إنما ظهر بواسطة الكلمة ، على ما كانت الروح عليها من الصورة في العلم الإلهي . فكان الجسم أصلا - من هذا الوجه - لظهور أعيان الممكنات ، إذ هو المتعلّق به كلمة الحضرة ، لكونه أتمّ المجالي ظهورا في المراتب الكونية .
ومن ثمّ ، كان الجسم : مقعد الصدق . لأنه محل ثابت متمكّن بيّن من كل وجه ، وبكل اعتبار ونسبة . ومعدن الإرفاق .
وكان الجسم معدن الإرفاق ، وهي المعاني الكمالية التي تحصل للأرواح بسبب الجسم . . وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم **« بكشف الستور عن مخدرات النور »** فمن أراد معرفة ذلك ، فليطالع هنالك .
ولما كان الجسم هو المتجلّي بجارحة السمع والبصر ،

قال الشيخ مشيرا إلى ذلك : ومظهر الأوفاق .
يعني : الجسم مظهر للصفات ، الموافقة لنعوت الحق تعالى ، من السمع والبصر ؛ إلى غير ذلك من القبضة ، واليمين ، والتبشّش ، والتعجّب ، والنسيان في قوله تعالى :فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ [الأعراف : 51] ،
والنّفس في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبّوا الريح فإنها من نفس الرحمن » .
رواه الحاكم في المستدرك وابن ماجة في سننه ورواه غيرهما .

والصورة في قوله عليه الصلاة والسلام : " رأيت ربي في صورة شاب . الحديث "

والذراع كما في قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث : « إن جلد الكافر أربعين ذراعا بذراع الجبار » . رواه الحاكم في المستدرك وابن حبان في صحيحه ورواه غيرهما .
فكلّ هذه الصفات ، هي للجسم حقيقة .
وقد وافقت ما هو لله ، سواء أوّلتها في حق الله تعالى ، أم لم تأوّل . لأن الشارع صلى الله عليه وسلم ، قد نسبها إليه تعالى ؛ فكان الجسم محلا لظهور الأمور الموافقة للنعوت الكمالية .

فالجسم : محل البركات . لتزايد الظهور . في مرتبته ، ولكونه يحصّل للروح - بواسطة الامتزاج به - علوما ، لا يمكنها أن تعرفها إلا بالجسم .
فهو محل البركة للروح ، ومحل زيادة الظهور للحق .
ومعيّن الحركات والسكنات . لما فيه من قوة الكثافة ، وتكاثف القوة التي بواسطتها تحصل للأرواح الحركات والسكنات الجزئية المضافة إلى الأجسام . وبه .

أي بوجود الجسم . عرفت المقادير والأوزان .
لأن الجسم محل ذلك ، وموضعه ، ومجلاه ، ومظهره . وبه سمي الثقلان .
لثقل الجسد ورسوبه ، له - أي للجسد - من الأسماء المتين ، بالتاء المثناة من فوق ، لما فيه من القوة والمتانة .
وهو الذي أبان النور المبين .
أي : الجسم هو المظهر للروح ، التي هي النور المظهر للأشياء كلها .
فلولا الجسم ، لما حصل للروح ما حصل من الكمال ، ولا استطاعت أن تظهر بشيء من ذلك في العالم . حكم . أي الجسم . في النور بالقسمة .
النور هو الوجود ، لأنه إنما وقع الظهور به ؛ فلولا الوجود ، لما ظهر الموجود ، ولا عرف العبد ولا المعبود .
وما ظهرت القسمة في الوجود ، إلا بسبب الأجسام ، لكون الأبعاد الثلاثة لازمة لها ، لكونها مركبة كثيفة ؛ ولأجل ذلك : ظهرت بوجوده الظلالات والظلمة .
لأن الكثافة الجسمانية لا تخرقها الأنوار طبعا ؛ ولأجل ذلك ، ظهر بوجود الجسم ، الظّلّ .
وكذلك الظلمة ، إنما ظهرت بواسطته ، لأن الليل هو عبارة عن استتار الشمس بالأرض عن أهل الأرض ؛ وكذلك الخسوف ، عبارة عن حيلولة الأرض بين الشمس وبين جرم القمر .
فلولا توسّط الأرض ، لما ظهرت هذه الظلمة الموجودة .
فالظلمة من طبع الأجسام . وكذلك ، من غلب عليه العمل بمقتضى الأمور الجسمانية ، يكون في ظلمة من ذلك البرزخ ، حتى يؤول أمره إلى النار.
فالجسم أصل في كمال النور ، وأصل في الظلمة .
ومنه ، أي من الجسم . تتفجّر ينابيع الحكم .
لوجود الحواس الخمس فيه ؛ فلكل حاسة من الحواس ، حكمة مخصوصة ليست لغيرها ؛ فلا تنال الروح هذه الحكم ، إلا بواسطة الجسم .
فالعين ينبوع الحكم التي لا تحصل إلا بالمعاينة ، كالألوان ، والحسن المشهود ، والطراوة ، والهيئات ، والأوضاع . فكلّ من خلق أعمى ، لا عين له ، ليس يعرف شيئا من هذه الحكم المستفادة بواسطة البصر ، لا في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة .
بل فاتته هذه الحكم على الإطلاق ، فلا يشعر بها ، ولا سبيل له إلى معرفتها .
والأذن ينبوع الحكم التي لا تحصل إلا بالاستماع ، كعلوم القرون الماضية ، وعلوم الأخبار ، والأحاديث المروية عن الرسل ، وعن الله بواسطتهم .
بل ولا يعرف الرسالة ولا الرسل ، كلّ من خلق أصمّ .
ولهذا ، يكون كلّ أصمّ ، خلق أبكم . لأنه لا يسمع من أحد ، شيئا من الكلام .

فلا يشعر بأوضاع الكلمات ، ولا يعرف لذة الأنغام ، ولا يحسّ بخشونة الأصوات الكريهة . . وقس على ذلك ، الشّمّ ، والذّوق ، واللمس ؛ في معرفة الروائح ، والأطعمة ، والنعومة والخشونة .
فكلّ حاسة من الحواس الخمس ، ينبوع حكم كثيرة مخصوصة بها ، لا تصحّ للروح معرفتها ، إلا بواسطة تلك الحاسة ، ولهذا ، احتاجت الروح في نيل الكمالات ، إلى الامتزاج بالجسم ؛ فالجسم محل ظهور هذه الكمالات .
وتبرز ، **يعني :** من الجسم . جوامع الكلم ، بواسطة اللسان . يحوي على رموز النصائح وكنوز المصالح .
أراد برموز النصائح : الاعتبار الحاصل للروح ، بواسطة حواس الجسم . وأراد بكنوز المصالح : الأعمال الصالحة من الأفعال ، والأقوال ، والعلوم ، والمعارف الإلهية ؛ الحاصلة للروح بواسطة الجسم .
لأنها تزداد شرفا عند الله بذلك ، فهي كنوز المصالح لها .
الشّهادة سخافته ، والغيب كثافته . أراد بالشهادة هنا ، عالم الملك ؛ وبالغيب ، عالم الملكوت .
والمراد : أن ظهور عالم الشهادة ، بواسطة رقة سطح الأجسام ، لأنها هي المشهودة من عالم الملك ؛ وبطون عالم الغيب ، بواسطة الكثافة الجسمانية ، لأنها هي المانعة عن ذلك .
ألا تراك إذا رأيت جسما من الأجسام ، فإن رقة مسطحة - وهو ظاهره الذي عبّر عنه الشيخ بسخافته - مشهود ، ذو الغيب والشهادة .

تستّر - أي الجسم بالجسم . للغيرة الإلهية على ذاته تعالى ، إذ هو عين الجسم !
وسبب هذه الغيرة : حتى لا يرى راء غيره .
فلا يبصر مبصر غير ظاهر الجسم ، صيانة من الحقّ تعالى - إذ هو عين الجسم - لباطن الجسم ؛ إذ هو من أشرف مظاهر الوجود ، لأنه المفصّل لجمليات مراتب الوجود ،
حيث أنه : يتقلّب . أي الجسم . في جميع الأحوال ، كاللطافة والكثافة ، والصغر والكبر ، والطول والعرض ، والعمق والسمك ، والبعد والقرب ، والتوسّط ، والحسن والقبح ، والفناء والبقاء ؛ إلى غير ذلك من الأحوال اللازمة للجسم ، والعارضة له .
فلولا شرفه ، لما كانت له الأحوال كلها .
فهو يدخل في كل طور من أطوار النقص والكمال ، ويقبل بذاته التصرّف في جميع الأعمال .
يعني : أن للجسم - من حيث هو - قابلية لكل عمل من الأعمال المتنوعة ؛ مما يستحيل عادة ، كقتل العصفور بازا ؛ أو يستحيل عقلا ، كحمل النملة جملا .
فإن في قابليتها ، القبول لذلك . فلو حصل الاستعداد ، ووافق القدر ، أمكنها فعل ذلك المستحيل . . <u>وإنما حصل هذا السرّ - الذي أودعه في الجسم - من قدرته .</u>

تنبيه : إعلم أن الأجسام على أربعة أقسام :
القسم الأول : هو المعدن . وهو عبارة عن كل جماد لا نمو له ، سواء كان مائعا أو منعقدا .
القسم الثاني : هو النبات . وهو كل نامي من الأجسام ، لا روح فيه طبعا .
القسم الثالث : هو الحيوان . وكل نامي ذي روح من الأجسام .
القسم الرابع : هو السماوات ، والأجرام النورانية ، والأفلاك العلوية ؛ فإن كلّا من ذلك ، أرواح قائمة متجسدة .
وإنما صحّ إطلاق لفظ الجسم عليها ، لكونها تقبل الأبعاد الثلاثة التي هي من طبع الجسم - وهي الطول والعرض والعمق - فكانت أجساما ، لأنها من تمام عالم الملك .
وعالم الملك ، عبارة عن مرتبة الطور الجسماني .

وقد ذكر الشيخ - رضي الله عنه - في الباب الذي ذكره في هذه النبذة ، خلاصة ما فيه . وهو الباب السابع من الفتوحات .

إن عمر الأرض ، أحد وسبعون ألف سنة من سني الدنيا ؛ فلا تظن أن ذلك على الإطلاق ، بل عمر العالم الدنياوي من وقت مخصوص وإلا ، فعمر هذا العالم أطول من أن يحصر ، أو يحصى بآلاف الألوف من السنين .

وقد ذكر الشيخ ما يدلّ على ذلك مصرّحا في الفتوحات المكية ، حين ذكر أن في الأهرام الموجودة بأرض مصر ، كتابة بقلم غريب ، يقرؤها من يعرفها .
ومفهوم تلك الكتابة ، أن باني تلك الأهرام ، بناها والنسر الطائر في الحمل ؛

وقال الشيخ رضي الله عنه : **إن النسر الطائر لا ينتقل من برج إلى غيره** ، إلا بعد مضي ثلاثين ألف سنة ، وهو اليوم في الدلو ؛ فقد قطع عشرة أبراج ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد ثلاثمائة ألف سنة .
وإذا كان هذا عمر الأهرام ، فأين أنت من عمر الدنيا ؟
فإذا كانت الدنيا المخلوقة للزوال بهذه المثابة من طول العمر ، فما قولك في الجنة والنار المخلوقتان للبقاء ؟
فلا تحمل كلام الشيخ - رضي الله عنه - في الفتوحات ، من أن عمر الجنة أو النار كذا كذا سنة ، على ظاهره ، بل ذلك من وقت مخصوص .
لما كان الجسم الإنساني ، كالعالم الدنياوي ، بالوضع والتفصيل .
فإن حكم العالم الدنياوي إلى الزوال والفناء ، لأن ذلك من لازم الجسم الإنساني ؛ فكلّ منهما نسخة للآخر ، وعمر كلّ منهما على حسب هيكله ، فكان عمر الإنسان قصيرا ، لأن

هيكله صغير ؛ وكان عمر العالم الدنياوي طويلا ، لكبر هيكله . . ولا بد له من الانعدام والفناء ، كما أنه لا بد للإنسان من ذلك . فافهم !

ولما كان العالم الأخراوي ، نسخة من باطن الإنسان وروحه - إذ كلّ منهما نسخة للآخر - فكانت الآخرة ، كالروح الإنسانية ؛ باقية بإبقاء الله تعالى .
فلا يتوهّم أن الجنة والنار تفنيان بحال ، وما ورد من أن النار تفنى ، وينبت محلها شجر الجرجير، إنما ذلك من حيث أقوات مخصوصة . ففناؤها وزوالها ، فناء مقيّد ، لا فناء مطلق.

لأن الآخرة ، محل مشهود الأعيان الثابتة - التي هي معلومات العلم - لأن الله تعالى يظهرها يومئذ ، فيرى منها كل أحد ، على حسب حاله ومقامه عند الله .

ولا شك أن النار معلوم العلم الإلهي ، فلا سبيل إلى زوال المعلوم عن العلم .

وقد كشفت بذلك ، عن أسرار شريفة ، لم يسمح بها أحد من المحقّقين ؛ غيرة على تفاصيل المعرفة بالله .
وفي هذه النبذة ، زبدة جميع ما أفرده الشيخ في الباب السابع من الفتوحات المكية .
فافهم ، أرشدك الله للصواب .

*

الباب الثامن وصار خرق العادة له عادة

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب من فنون العلوم ، المشار إليها في صدر الكتاب . سرّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد .

اعلم ، رضي الله عنا وعنك ، أن الصوفية فرّقوا بين الجسم والجسد ؛
فقالوا : إن الجسم هو كل صورة مرئية قابلة للأبعاد الثلاثة ، حالة كونها كثيفة الأصل طبعا .
وقالوا : إن الجسد عبارة عن كل صورة - يتشكّل بها روح - من الصور الجسمانية .
وإذ قد عرفت ذلك ،
فاعلم أن قول الشيخ - رضي الله عنه - « سرّ ظهور الأجساد بالطريق المعتاد » هو ليعلم أن المراد بذلك ، عبارة عن تصويرات الروح في الأشكال الحسية ، المشهودة ، الصورية .
وإنما قال الشيخ « بالطريق المعتاد » ليعلم أن المراد بذلك ، تصورات الأرواح الجزئية ؛ كما يجيء للأشخاص - في حال تفكّرهم - من تصوّر روحه الجزئية ، بالصورة الخيالية المشهودة له عينا ؛ أو كما يجري للنائم من تصوّر روحه ، بالصورة المرئية في النوم ، المشهودة له حسّا وشهادة.
ولما كان عالم الخيال وعالم المثال متشابهين ، كأنهما من جنس واحد ، وكان البرزخ أيضا شبيها لها ؛ قال تنبيها على ذلك : البرزخ ما قابل الطرفين بذاته .

أراد الشيخ رضي الله عنه ، أن يعلمك :
أن عالم الخيال برزخ ؛ لكونه قابل طرفي الجسم والروح الإنسانية ، بذاته .
وأن عالم المثال - أيضا - برزخ ؛ لكونه قابل طرفي المعنى والصورة ، بذاته .
وأن العالم الذي تصير إليه الأرواح بعد فراقها للأجسام - أيضا - برزخ ؛ لأنه قابل طرفي دار الدنيا ودار الآخرة ، بذاته .
فكلّ من هؤلاء البرازخ ، بين أحكام طرفيه - لا بدّ له من ذلك ، إذ هو ناشىء منهما .

فالخيال ، بين أحكام الجسم وبين أحكام الروح .
والمثال ، بين أحكام الصورة والمعنى . والمحل الذي تقيم فيه الأرواح ، بين أحكام الدنيا والآخرة .

وقد ذكرنا ذلك مفصلا - على ما هو عليه - صريحا ، في الجزء التاسع عشر من كتاب « الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبي صلى الله عليه وسلم » فمن أراد تحقيق الخيال ، والبرزخ ، والمثال ، وأرض الحقيقة - التي ذكرها الشيخ في الفتوحات - فلينظر في ذلك الجزء ، فإنما وضعت تلك الرسالة لتحقيق ذلك .

فهذه العوالم الأربعة ، قريبة بعضها من بعض ؛ وكلّ منها برزخ ، لأنه قابل الطرفين بذاته . وأبدى لذي العينين من عجائب آياته ، ما يدلّ على قوته ، ويستدلّ به على كرمه وفتوّته .
أراد بذي العينين ، كلّ من كان له نظر في عالم الأرواح ، ونظر في عالم الأجسام .
احترازا ممن هو مقصود على عالم الأجسام ، فكأنه ليس له إلا عين واحدة .
ولفظة « ما يدلّ » موصولة ، وهي مفعول « أبدى » ؛
وتقديره : إن البرزخ ، ما قابل الطرفين بذاته ، وأبدى أمورا تدلّ على قوته ، كلّ من كان له عينان يبصر بهما في العالمين .
والدليل على أن هذه البرازخ المذكورة - **من الخيال ، والمثال ، وأرض السّمسمة ، والبرزخ** - لها قوة ، أنها شعبة من القدرة ، وأمورها منوطة بالقدرة المحضة .

وليست كأمور الدنيا ، موقوفة على الحكمة والأسباب ، لأن الأشياء تتكوّن فيها بالإرادة ؛ فهي قدرة محضة . وإذا صحّ أن لها هذه القوة والقدرة ، صحّ أن لها كرما وفتوة .
فهو القلّب الحوّل أي : البرزخ متقلّب في الصور ، متحوّل في الهيئات ؛ لسرّ مقتضيات طرفيه ، واختلاف أمورهما .
ولهذا ، لا تدوم الصور المرئية فيه للناظر ، بل تمرّ عليه ، وتذهب عنه ، ولو كانت باقية ، من حيث هي هي.

فلتقلّب أحوال البرزخ على أهله ؛ قال : والذي في كلّ صورة يتحوّل .
تقديره : وهو - أي البرزخ - في كل صورة من صورة طرفيه ، يتحوّل . عوّلت عليه . أي على البرزخ ؛ الأكابر .
يعني : أهل الله ؛ لرجوعهم آخر الأمر إليه ، فكان تعويلهم - لذلك - عليه حين جهلته . أي البرزخ ؛ الأصاغر .
وأراد بالأصاغر ، **المحجوبين** ؛ وبالأكابر ، أهل الكشف . فله . أي للبرزخ ؛ المعنى في الحكم ، والقدم الراسخة في الكيف والكمّ .

إنما كان للبرزخ هذا المعنى ، لتعلّقه بطرفه الروحاني ؛ والكيف والكمّ ، لتعلّقه بطرفه الثاني ، وهو الطرف الصوري الجسماني .
ولهذا ، كلّ برزخ : سريع الاستحالة ؛ لكون صوره قليلة الدوام ؛ عند الرائي ، لا من حيث هي هي .
يعرف العارفون حاله ، بيده مقاليد الأمور ؛ لكونه قدرة محضة ، تتكون الأشياء فيه بالإرادة .
وإليه مسانيد الغرور ؛ من أجل تحوّل صوره ، فمن ركن إلى شيء منها ، اغترّ به . له .

أي للبرزخ ؛ النّسب الإلهيّ الشريف .
أراد بالنسب هنا ، تكوين الأشياء بالقدرة ، ألا تراك تكون ما أردته في خيالك ، على حسب ما شئت ؟
وإن كنت متمكّنا ؛ كان لك ذلك في عالم المثال ، وفي العالم الذي تصير الأرواح إليه بعد الانتقال من دار الفناء والزوال .

ولقد جرت لي واقعة عجيبة في هذا المعنى : رأيت مرّة في المنام ، وأنا بصنعاء اليمن بتاريخ سنة خمس وثمان مائة ، امرأة كانت قد ربّتني وأحسنت إليّ في صغرى ، وكانت قد ماتت ؛ فرأيتها مسودّة الوجه ، لما تلقاه من العذاب ، لنظرها إلى النار .
فألبست النّار لها ، صورة الجنة .
وقلت : انظري إلى الجنة . فنظرت إليها ، فزال عنها السواد الذي في وجهها ، وتهلّل وجهها ، حتى صارت كالقمر في الحسن والبهاء .

وكثيرا ما أرى في النوم أمورا ، أعرف فيه أن تعبيرها في اليقظة غير ملائم لطبع ، فلا أقربها .
وبعض الأحيان ، أقلبها إلى غير تلك الصورة المخالفة للطبع ، فأراها كما أريد ! ولا يستطيع ذلك ، إلا من قدر على تصريف الأمور في المعنى ، وصار خرق العادة له عادة في العالم الروحاني ، لا يعرف ذلك ، إلا من مارسه من العارفين .

فللبرزخ : تلك الصفة الإلهية القادرية . والمنصب الكياني المنيف .
أي ، **وللبرزخ :** المنصب الكياني العالي ؛ وهو التعيّن بالصورة المحسوسة ، المحدودة ، الخلقية ، فهو خلق ، له وصف الحقّ.
تلطّف في كثافته وتكثّف في لطافته . لكونه بين عالمين ؛ أحدهما كثيف ، والآخر لطيف . فهو يظهر بحكم كلّ من عالمي اللطافة والكثافة ، في صورة واحدة .

يخرجه العقل ببرهانه . أي : يخرج العقل بالفكرة ، صور الأمور الخيالية - لأن الخيال من جملة البرازخ - ببرهانه . وهي الدلائل العقلية ، التي تنتج في الفكر صورا ؛ على حسب مقتضاها .

ويعدّله الشّرع ، بقوة سلطانه . أي : يصرفه الشرع إلى غير ما ظهر في العقل ، لأن المشرع مرتبط بالوحي الإلهي ، فله الحكم على كل صورة ومعنى .
فلذلك ؛ لم يكن للعقل ، في الشرع ، مجال .
فالخيال : يحكم في كل موجود . لأنك تسري بعقلك في كل شيء ، ولأن الخيال يستحضر كلّ موجود في عالمه ، وإلى صحة الأمور المشهودة بحكم الدلائل العقلية ،
أشار بقوله : ويدلّ على صحة حكمه ، بما يعطيه الشهود ،

ويعترف به . أي : بصحة ما حكم العقل - في الخيال - به ، **فيقرّ . الجاهل بقدره** . أي : بقدر عالم الخيال . والعالم . أي بقدره . ولا يقدر على ردّ حكمه حاكم .
لأن العقل إذا اقتضى أمرا ، لا يمكن أحد من أهل المعرفة ، ردّ ذلك الحكم .

وقد شرحت لك بهذه النبذة ، جميع ما تضمّنه الباب الثامن من الفتوحات المكية .
فافهم ، وتأمّل ، والله الموفق للصواب .

*

الباب التاسع إبليس أوّل من خالف في الأمر وآدم أوّل من خالف في النّهي!

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي ، ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب ، من فنون العلم . سرّ الوالج والمارج .

الوالج : إشارة إلى الأرواح الطاهرة المختلفة ، من العنصريين العلويين ، وهم ملائكة الجوّ ، بين السماء والأرض .

والمارج : هو الأرواح الخبيثة ، وهي الجنّ ، خلقهم الله تعالى من امتزاج النار بالهواء ، كما خلق الإنسان من امتزاج الماء بالتراب .

ولما كان خلق الجان ، من امتزاج النار بالهواء ، كان الانقلاب طبعا له .

لأن الهواء لا ثبوت له ؛ وكذلك النار ، تريد العلو والارتفاع طبعا ، ألا تراك إذا أخذت شمعة وأقلبتها ، لا تنقلب نارها معك ، بل ترجع إلى فوق بالطبع ؛ لأن الركن الناريّ يتعالى طبعا .

وبعكسه التراب ، لا يطلب إلا السفل ؛ فلو أخذت كفّا من تراب ، ورميت به إلى فوق ، لرجع إلى أسفل بالطبع .

ولهذا ؛ كان الإنسان مؤتمرا طيعا ، والجان مخالفا عاصيا . فإن عرضت معصية من الإنسان ، كانت تلك الغفلة منه عارضة ، لما يقتضيه طبعه .

كما أنه لو عرضت طاعة من الجان ، كانت تلك الطاعة عارضة ، لما يقتضيه طبعه ، ومن ثمّ ، تاب الله على آدم ، ولم يتب على إبليس .

لأن إبليس من طبعه المعصية ، ألا تراه تكبّر وقال :أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ[الأعراف : 12] في حضرة الحق ، ولم يصدر من الإنسان - الذي هو آدم - إلا البكاء ، والندم ، والخوف ؛ لما يقتضيه التراب من الذّلّة والسّفل .

فلهذا المعنى ؛ لعن إبليس ، لأنه محل المعصية والخلاف .

وهو المشار إليه بقوله : أول جواد كبا ، حين أمر فأبى .

يعني : إبليس هو أول من خالف الله . ونعته بأنه « جواد » ، لأنه كان قبل ذلك من المقربين.

فإبليس أول من خالف في الأمر ، وآدم - عليه السلام - أول من خالف في النّهي .

لأنه قيل له لا تأكل الحبّة ، فأكل ؛ وإبليس قيل له اسجد ، فما سجد .

فالخلاف واقع منهما ، لا من جهة واحدة ، بل من جهتين .

ولذلك قال الشيخ : وأول من قدح في النّهى من نهي وما انتهى

يعني : آدم عليه السلام ، نهي من أكل الجنة ، فما انتهى عن ذلك ؛ فكان فعله قدحا في العقل ، لأن امتثال المولى ، مما يحكم العقل بلزومه ؛ فخلافه ، قدح في عقل المخالف طبعا .

وإنما وقع الخلاف في هذين الجنسين - دون سائر الأجناس - لأن الظهور في تركيبهم لركنين .

على أن بقية الأركان موجودة في كل جنس منهما ؛ فالجنّ من النار والهواء ، والإنسان من الماء والتراب ، والخلاف واقع بين النار والهواء ، لأن النار **« يابس »** والهواء **« رطب »** ؛ وبين الماء والتراب ، لأن التراب « يابس » والهواء **"رطب "**.
فغلب حكم الخلاف في ذوات هذين الجنسين - دون غيرهما - لأن كل موجود سواهما ، غير مخصوص بركنين ، بل يتساوى فيه الأربعة أركان ، جمعا وفردى ، وكلّ من الجان والإنسان أيضا ، توجد فيه الأركان الأربعة ؛ لكن الظهور في كلّ منهما ، لركنين ، كما ذكرنا .
فلهذا خالفوا ، لأن طبع تركيبهم يقتضي المخالفة .
وإلى ذلك أشار الشيخ رضي الله عنه بقوله : سنّ الخلاف في الائتلاف ، فأظهر النقض ليعرف الحبيب من البغيض . جعل الله الخلاف مسنونا في طبع تأليف الإنسان والجان ، وطلب منهما ما يناقض طبع كلّ منهما ؛ فطلب من الجان ، الذي أصله الكبر ، أن يتواضع ، فيسجد ؛ وطلب من الإنسان ، الذي أصله يقتضي التغذّي بالحبّة، أن يتركها.

فأظهر لكلّ منهما ما يناقض مقتضى طبعه ، مخالفا ؛ ليظهر بذلك شرف الحبيب - وهو الإنسان - ونقص البغيض ، وهو العدو الشيطان .

امتثل الأمر فيما يشقيه .
يعني : أن إبليس خالف الحقّ فيما يسعده - حيث أمره الله بالسجود ولم يسجد - وامتثل الأمر من الله فيما يشقيه ، حيث قال الله تعالى له :وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ[الإسراء : 64] الآية ، فأطاع ذلك ، ولم يعص .
وحلّ به . أي إبليس . ما كان يتقيه ؛ من الذّلّة والبعد عن الله .
لأنه ما ترك السجود لآدم ، إلا بسبب أمرين : أحدهما ، لئلا يسجد لغير الله ، فيبعده عنه من أجل ذلك ؛ والثاني ، لئلا تحلّ به المذلّة ، فحلّ به الأمران جميعا ، بالخلاف لأمر الله .
فهو والجن : يحالف الرّدى ، ويخالف الهدى ، ولا يترك سدى .
يحالف - الأولى - بالحاء المهملة ، من المحالفة ؛ وهي القسم بعدم الخلاف .
ويخالف الثانية ، بالخاء المعجمة ، من الخلاف .
وتقديره : أنه ملازم للردى كأنه حلف ألا يفارق ما يكون سببا للبلاء ؛ وجاء بخلاف ما هو سبب للهدى . ومع اتصافه بالخوف ، لا يبرح في معاملته بالحيف .
يعني : أن طبع الجنّ ، الميل والانحراف إلى الغيّ ؛ فلو قدّر أنه يخاف من الله ، لا يبرح يحيف في معاملته له ، ولا يقصد سواء السبيل ، لأن المخالفة من طبعه الذي هو عليه .
فإذا جنح منهم من جنح إلى ربّه طائعا ، وكان لباب سعادته قارعا . لم يحسن أحد منا قرعه ، وكان الحقّ بصره وسمعه .

يعني : الجنّ ، إذا اتفق أن يرغب أحد منهم إلى ربّه ، وخالف ما يقتضيه الطبع الناري من المعصية ، والطبع الهوائي من عدم الثبوت على أمر ، فأطاع وثبت على الطاعة ؛ يخرق في سرادق الحجب ، لأنه روحانيّ لا كثافة فيه .
فلأجل ذلك ، لم يستطع أحد من الإنس أن يبلغ بجسمه ، ما يبلغه ذلك الجنّيّ الكامل المطيع .
إن سمع أنصت . لأنه روح ، إذا توجّه للشيء ، توجّه فيه بالكلية . ألا تراهم أنصتوا للحقّ ، لما سمعوه ؛ فقال قائلهم :إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً[الجنّ : 1] .
ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « هم أسمع وأنصت منكم » .
ألا تراهم لما سمعوا قوله تعالى :فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ(13) [الرّحمن : 13] .
قالوا : ولا بشيء من آلاء ربّنا نكذّب.
وإن أسمع أبهت ؛ لما يبديه من العجائب التي يصل علمه إليها ، والغرائب التي يقتضيها طبعه وعالمه ، وقد شرحت بهذه النبذة ،
خلاصة ما حواه الباب التاسع من الفتوحات المكية ، فاعلم .
*

الباب العاشر مرتبة الإنسان الكامل عندي فوق مرتبة الملائكة

الأنوار العلوية

قال الشيخ رضي الله عنه : ومن ذلك . أي : ومن بعض ما تضمّنه هذا الباب ، فنون العلوم المذكورة في الكتاب : سرّ النّور .
أي : الوجود المطلق ، الذي هو الحقّ في الخفاء والظهور .
يعني : بالخفاء ، تجلّي الحقّ تعالى لنفسه ، في ذاته بذاته ؛ وبالظهور ، تجلّيه لخلقه ، في مخلوقاته .
أشرقت : أي ظهرت .
الأنوار : أي الأسماء والصفات الإلهية ،
فشرقت : أي تعيّنت الذات بتعيّن الأسماء والصفات .
وتميّزت بها : أي بالأسماء والصفات . الأعيان الثابتة ، التي هي حقائق الممكنات . فافترقت.
يعني : تعيين كلّ موجود ، بسبب الأسماء والصفات ؛ لأنها آثارها . . فحصلت الأعيان في الفرق ، بعد الجمع الأول .
فأغنت الإشارات عن العبارات .
أراد بالإشارات : الموجودات ، التي هي آثار الأسماء والصفات .
وبالعبارات : الأسماء والصفات الحقّ أغنى الناظرين ، شهود الأثر ، عن شهود المؤثر . **فمنها :** أي من الموجودات الكونية .
من هيّم ؛ كالملائكة المهيّمة في جلال الله تعالى وجماله . فتهيّم ؛ كالعقل . الأول ، والنفس الكلية ، والروح الكلية .
ومنها : أي من الموجودات الكونية . من حكّم ؛ كالطبيعة . فتحكّم ؛ كالملائكة الموكّلة بتدبير العالم ، لأنهم تحكّموا في إيجاد الموجودات : كالعقل الفعّال ، وكالأركان الأربعة ، وكالكواكب السبعة .
فلكلّ عين ؛ أي ملك من هذه الملائكة المهيّمة والمحكّمة . مقام معلوم ؛ أي وظيفة مخصوصة يقوم بها ، ومحل مخصوص من الكمال يكون عليه .
وحدّ مرسوم ؛ لكلّ من هذه الملائكة ، حدّ لا يتعدّاه . وذلك الحدّ ، هو ما تقتضيه قابليته من الفاعلية ، والمنفعلية ، والصورية ، والمعنوية ، والكلية ، والجزئية.
فمنه ؛ أي من مقام هذه الأملاك . مرمز ؛ لا يدرك بالعقل ، كمقام القلم الأعلى واللوح المحفوظ . ومنه مفهوم ؛ كمقام الأركان الأربعة ، لأن فعل الطبائع في الوجود ، مفهوم عقلا ، ومشاهد حسّا .

الملائكة المهيمة والمحكمة :

يخلّقون نفوسهم كما يشاؤون . **يعني** الأرواح الكلية ؛ كالهيولى ، فإنها تتكوّن حسب ما تقتضيه من الصور .

كالطبيعة إذا تخلّقت نارا ، أو هواء ، أو ماء ، ترابا - على حسب المقتضى - فتتخلّق بصورته ؛ فهي الخالقة لنفسها ، بقدرة الله تعالى .
وفي أيّ صورة شاؤوا ، يتحوّلون . يعني : أن الأرواح الكلية ، تتصور بأيّ صورة تقتضي قوابلها - من الصور الجزئية - فتتحوّل فيه ، كما تحوّل جبريل عليه السلام ، في صورة دحية الكلبي .
هم الحدّادون . أي : الأرواح المهيّمة ، هم الجاعلون لهم حدودا ، حسب ما تقتضيه قوابلهم ، فلا يتعدّى شيء منهم حدّه .
والحجّاب . أي : الملائكة المحكّمة ، هم حجّاب الله تعالى ، لأنهم الفعلة للأمور ، فلا ينظر الناظر ، إلا إليهم . وهم حجّاب ، يمنعون - أيضا - أبصار الناظر ، أن تقع على الحق تعالى ، وبهم ، حجب عن الله من حجب . ولهم ؛ أي للملائكة المهيّمة ، والمحكّمة .
الظّهور : تارة حسّا ، وتارة عقلا ؛ صورة ، **ومعنى .** والحجاب : ولهم البطون ، لأن مقامهم يقتضي ذلك . ألا ترى إلى الهيولى ، كيف ظهرت بظهور الصور ؛ وهي - أعني الهيولى - باطنة على الحقيقة ، بعد هذا التعيين والظهور .[إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ص : 5].
يعني : كونهم ظاهرين في بطونهم ، وباطنين في ظهورهم ؛ أمر يحصل منه التعجّب ، لحصول النقيضين بحال واحد يكثرون التكبير ، ويحقّون بالسرير .
أي بالعرش - والمراد به هنا : جميع المظاهر الكونية - فإن هذه الملائكة المهيّمة والمحكّمة ، حاقّون به .
لهم المقام الأشمخ . أي المنصب الأعلى ؛ لأنهم مخلوقون بغير واسطة ، كالعقل الأول ؛ أو بواسطة قليلة ، كالأرواح الكلية . أو لكونهم أسبابا كلية ، لوجود الموجودات .
ومنزلهم ؛ أي منزل الملائكة المهيّمة ، والملائكة المحكّمة : بين الله والعالم ، مثل البرزخ .
جعلهم الشيخ - رضي الله عنه - أفضل من البشر الكمّل ، فقال إنهم متوسطون بين مرتبة الألوهية وبين مرتبة الإنسان الكامل .
هذا مذهبه ! ولا أقول بذلك ؛ بل مرتبة الإنسان الكامل - عندي - فوق مرتبة الملائكة ، لأنهم له ، كالقوى للجسد ، وكالصفة للذات ، وكالعرض للجوهر.

فأصحاب النسب منهم الخلفاء من البشر . يعني : من كان منسوبا إلى أحد هذه الملائكة المهيّمة أو المحكّمة ، بحكم ما تحقّق به في المراتب الكمالية الكلية ، الجميلة ، والجزئية التفصيلية - كما يقال : فلان على قلب إسرافيل ، وفلان على قلب ميكائيل - كان خليفة للحق ، يعني : نبيّا .
واعلم ، أن الخلفاء على أقسام :
خلفاء الله ، على ما هو له ؛ يقومون بصفاته عنه .

وخلفاء الله ، على ما هو منه ، يقومون به في خلقه .
وخلفاء ، لخلفاء الله في كلا القسمين .
فالخلافة المحضة ، فيما هو الله ؛ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وللأنبياء والأولياء الكمّل .
والخلافة المحضة ، فيما هو من الله ؛ لمحمد صلى الله عليه وسلم وحده ، والأنبياء والأولياء الكمّل نوّابه . فهم ، خلفاء خلافته صلى الله عليه وسلم .
ولمّا كان هذا العلم ، مما لا يمكن دركه لأحد ، إلا بالكشف والرؤية .
قال : يعلم ذلك ، من تحقّق بالنظر . يعني : بالشهود والرؤية .
ولهذا قال : واعتمد على ما جاء به الكشف والخبر .
أراد بالخبر ، قوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نبيا ، وآدم بين الماء والطين » وهذا الخبر ، هو الذي يعطيه الكشف .
"""" رواه الحاكم في المستدرك عن العرباض بن سارية السلمي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام " . ورواه ابن حبان وغيرهما.
""""

ولما كانت النبوّة تقتضي أن يكون محلّها ، التوسّط بين الله وبين الخلق ؛ وكان صلى الله عليه وسلم واسطة الجمع قبل ظهور الكلّ .
كان هذا موضع تحيّر العقل ؛ حيث وجد نبيّ ، من غير قوم يرسل إليهم ،
قال : والعقول من حيث أدلّتها ، قاصرة عن إدراك هذا العلم ، لطموس عين الفهم .
يعني : كونه صلى الله عليه وسلم ، نبيّا قبل وجود آدم وذريته ، مما لا تدركه العقول ؛ لطموس طريقة الفهوم ، الموقوفة على الأدلة ، فافهم .
وقد شرحت لك ، جميع ما حواه الباب العاشر من الفتوحات المكية ، والله الموفق ، لا ربّ غيره.

*

مقتطفات من الباب 559 من الفتوحات المكية

ومن ذلك ، سرّ الافتتاح بالنكاح ؛ من الباب الأحد عشر :

أنا في الوجود باب * وعليه منه قفل
فأنا بعل بوجه * وبوجه أنا أهل

القول - من القائل - في السامع ، نكاح . فعين المقول ، عين ما تكوّن من السامع ، فظهر . .
ظهور المصباح ، لتوجه سبب القول والتكوين - على التعيين - في المحل الظاهر ، لنزول الباطن إلى الظاهر . وهذا نكاح بين المعنى والحسّ ، والأمر المركّب والنّفس ؛ ليجمع بين الكثيف واللطيف ، ويكون به التمييز والتعريف .
وإن خالف تركيب المعاني ، تركيب الحروف ؛ فهو كخلاف المعرفة والمعروف .

ثم ينزل الأمر النكاحيّ ، من مقام الافتتاح ، إلى مقام الأرواح ؛ ومن المنازل الرفيعة ، إلى ما يظهر من نكاح الطبيعة ؛ ومن بيوت الأملاك ، إلى نكاح الأفلاك لوجود الأملاك ؛ ومن حركات الأزمان ، إلى نكاح الأركان ؛ ومن حركات الأركان ، إلى ظهور المولّدات التي آخرها جسم الإنسان ، ثم تظهر الأشخاص ، بين مباض ومناص.
فالنكاح ثابت مستقر ، ودائم مستمر .

ومن ذلك ، سرّ إطفاء النبراس بالأنفاس ، من الباب الخامس عشر :
لما كان القائل له مزاج الانفعال ، كان للنّفس الإطفاء والإشعال . فإن أطفأ أمات ، وإن أشعل أحيا ، فهو الذي أضحك وأبكى .فينسب الفعل إليه ، والقابل لا يعوّل عليه .

وذلك لعدم الإنصاف في تحقيق الأوصاف ، مع علمنا بأن الاشتراك معقول في الأصول . للقابل الإعانة ، ولا يطلب منه الاستعانة . فهو المجهول المعلوم ، عليه صاحب الذوق يحوم ، وحكمه في المحدث والقديم .
يظهر ذلك ، في إجابة السائل ، وهذا معنى قولنا القابل .
لولا نفس الرحمن ، ما ظهرت الأعيان . ولولا قبول الأعيان ، ما اتصفت بالكيان ، ولا كان ما كان .
الصبح إذا تنفّس ، أذهب الليل الذي كان عسعس .

فلولا الصّيد ما نفر الغزال * ولولا الصدّ ما عذب الوصال
ولولا الشّرع ما ظهرت قيود * ولولا الفطر ما ارتقب الهلال
ولولا الجوع ما ذبلت شفاه * ولولا الصّوم ما كان الوصال

ولولا الكون ما انفطرت سماء * ولولا العين ما دكّت جبال
ولولا ما أبان الرّشد غيّا * لما عرفت هداية أو ضلال
ولا كان النّعيم بكلّ شيء * ولا حكم الجلال ولا الجمال
أرى شخصا له بصر ويرمي * ولا قوس لديه ولا نبال
فسبحان العليم بكلّ أمر * له العلم المحيط له الجلال
إذا نظرت إليه عيون قوم * بلا جفن بدا لهم الكمال
ووقتا لا يرون سوى نفوس * مبعّدة وغايتها اتصال

-
ومن ذلك :
سرّ من منح ليربح ، فلنفسه سعى ، فكان لما أعطي وعا ، من الباب السابع عشر :
إذا ما كنت ميدانا * فجل فيه إذا كانا
فإنّي لست أنفيه * لذا سمّيت إنسانا

ومن ذلك : سرّ النافلة والفرض ، في تعلّق العلم بالطول والعرض ، من الباب العشرين :
من كان علته عيسى ، فلا يوسي . فإنه الخالق المحيي ، والمخلوق الذي يحيي .
عرض العالم في طبيعته ، وطوله في روحه وشريعته .
وهذا النور ، من « الصّيهور والدّيهور » ، المنسوب إلي الحسين بن منصور .
لم أر : متّحدا رتق وفتق ،
وبربّه نطق ،
وأقسم بالشّفق ، واللّيل وما وسق ، والقمر إذا اتّسق
وركّب طبقا عن طبق ، مثله
. . فإنّه نور في غسق .
منزلة الحق لديه ، منزلة موسى من التابوت ؛ ولذلك كان يقول باللاهوت والناسوت .
وأين هو ، ممن يقول : العين واحدة ، ويحيل الصفة الزائدة ؟ وأين فاران من الطور ؟ وأين النار من النور ؟
العرض محدود ، والطول ظلّ ممدود ، والفرض والنفل : شاهد ومشهود .

ومن ذلك ، سرّ الجرس ، واتخاذ الحرس . . من الباب الخامس والثلاثين :
الجرس كلام مجمل ، والحرس باب مقفل . فمن فصّل مجمله ، وفتّح مقفله ؛ اطّلع على الأمر العجاب ، والتحق بذوي الألباب ، وعرف ما صانه القشر من اللباب ، فعظّم الحجاب والحجّاب .
الإجمال حكمة ، وفصل الخطاب قسمة .
لإزالة غمّة ، في أمور مهمّة ، محجوبة بليال مدلهمّة .
والحرس عصمة ، فهم أعظم نعمة ، لإزالة نقمة .

صلصلة الجرس ، عين حمحمة الفرس .

*

ومن ذلك ، سرّ وجود النّفس في العسس . . من الباب التاسع والأربعين :

بالعسس يطيب المنام ، وبالنّفس تزول الآلام . إن أضيف إلى غير الرحمن ، فهو بتان . ظهور حكمه ، فزال عن المكروب غمّه .

من قبل اليمن جاء ، وبعد تنفيذ حكمه فاء . وإليه يرجع الأمر كله ، لأنه ظلّه ، لا ينقبض الظّلّ ، إلا إلى من صدر عنه ؛ فإنه ما ظهر عينه ، إلا منه . فالفرع لا يستبد ، فإنه إلى أصله يستند .

في الفروع يظهر التفصيل ، وتشهد له الأصول ، في قضية العقول .

ومن ذلك ، سرّ الحيرة والقصور ، فيما تحوي عليه الخيام والقصور . . من الباب الخمسين :

الخيمة والقصر ، يؤذن بالقهر والقسر . لولا الحيرة ما وجد العجز ، ولا ظهر سلطان العزّ ، وبالقصور ، علم بحدوث الأمور .

القصور يلزم الطرفين ، لعدم الاستقلال بإيجاد العين . لولا القبول والاقتدار ، وتكوير اليل والنهار - بالإقبال والإدبار - ما ظهرت أعيان ، ولا عدمت أكوان ، فسبحان المتفضّل بالدهور والأمور .

ومن ذلك ، سرّ الهرب من الحرب ، من الباب الأحد والخمسين :

من مال ، متحيّزا إلى فئة أو متحرّفا لقتال ، فما مال . فالهرب من الحرب ، وهو من الخداع ، في الفزاع ، كن قارّا ، ولا تتّبع فارّا .

لا تضطره إلى ضيق ، فيأتيك من تكرهه من فوق . كلّ يجري في قربه إلى أجل ، فلا تقلّ بجلّ . إذا نزل القدر ، عمي البصر . نزول الحمام ، يقيّد الأقدام .

لا جناح ، لمن غلبه الأمر المتاح .

من راح ، استراح ، إلى مقر الأرواح .

من فتح له باب السماء ، استظلّ بسدرة الانتهاء .

الشهيد حيّ ، وإنجازه ليّ .

ومن ذلك ؛ سرّ عبادة الهوى ، لماذا تهوى . . من الباب الثاني والخمسين :

لا احتجار على الهوى ، ولهذا يهوى . بالهوى يجتنب الهوى . وحقّ الهوى ، إنّ الهوى سبب الهوى . ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى ، بالهوى يتّبع الحق . والهوى يقعدك مقعد الصدق .

الهوى ملاذ ، وفي العبادة به التذاذ ، وهو معاذ لمن به عاذ .وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى(2) [النّجم : 1 ، 2] .
فبهوي النجم وقع القسم ، بعد ما طلع ونجم ،* فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76) [الواقعة : 75 ، 76] فلولا علوّ قدره ، ما عظّم من أمره .

<u>ومن ذلك ، سرّ تعشّق القوم بالنوم ، من الباب السادس والتسعين :</u>
الخيال عين الكمال . لولاه ما فضّل الإنسان على سائر الحيوان ؛ به جال وصال وافتخر وطال ،
وبه قال من قال : سبحاني ؛ وإنني أنا الله ، وبه كان الحليم الأوّاه . فله الشتات والجمع بين أضداد الصفات حكم على المحال والواجب ، بما شاءه المذاهب .
يخرق فيهما العادة ، ويلحقهما بعالم الشهادة ، فيجسّدها في عين الناظر ، ويلحق الأول - في الحكم - بالآخر .
لا يثبت على حال ، وله الثبوت على تقلّب الأحوال . فله من آي القرآن ، ما جاء في سورة الرحمن ، من أنه تعالى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ(30) [الرّحمن : 29 ، 30]
. . ولا بشيء من آلائك ربنا نكذّب ، فإنّا من جملة نعمائك !

<u>ومن ذلك ، سرّ العلم المستقر في النّفس بالحكم ، من الباب الأحد ومائة :</u>
العلم حاكم ، فإن لم يعمل العالم بعلمه ، فليس بعالم العلم . لا يمهل ولا يهمل . العلم أوجب الحكم ، لمّا علم الخضر حكم ؛ ولمّا لم يعلم ذلك صاحبه ، اعترض عليه ، ونسي ما كان قد ألزمه ، فالتزم !
لما علم آدم الأسماء ، علم وتبرّز في صدر الخلافة ، وتقدّم ، العلم بالأسماء ، العلامة على حصول الإمامة .
العلم يحكم والأقدار جارية * وكلّ شيء له حدّ ومقدار
إلّا العلوم الّتي لا حدّ يحصرها * لكن لها في قلوب الخلق آثار
فحدّها ما لها في القلب من أثر * وعينها فيه أنجاد وأغوار
فلو تحدّ بحدّ الفوز ناقضه * حدّ لنجد ، ففي التّحديد إصرار
إفهم قوله تعالى :حَتَّى نَعْلَمَ[محمّد : 31] فتعلم ، إن كنت ذا فهم ، من أعطاه العلم ؟ من علم الشيء قبل كونه ، فما علمه من حيث كونه ، وإنما علمه من حيث عينه ، من أين علم أنّ العين يكون ، وليس في العدم مكون ؟
هذا القدر من العلم ، أعطاه جوده ، وحكم به وجوده .

<u>ومن ذلك ، ولاية البشر عين الضرر ، من الباب الخمسين ومائة :</u>

إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً[البقرة : 30] يؤمن به من كل خيفة ، أعطاه التقليد ، ومكّنه من الإقليد ؛ فتحكّم به في القريب والبعيد .
وجعله عين الوجود ، وأكرمه بالسجود ؛ فهو الروح المطهّر ، والإمام المدبّر .

شفّع الواحد عينه ، وحكم بالكثرة كونه . وإن كان كل جزء من العالم مثله في الدلالة ، ولكنه ليس بظلّ . . فلهذا انفرد بالخلافة ، وتميّز بالرسالة ؛ فشرّع ما شرع ، وأتبع - فهو واسطة العقد ، وحامل الأمانة والعهد .

حكم فقهر ، حين تحكّم في البشر ؛ فظهر النفع والضرر . فأول من تضرّر هو - كما ذكر - ثم إنه لم يقتصر ، حتى آذى الحق وسبّه ؛ وأعطاه قلبه ، وعلم أنه ربّه ، فأحبّه ، ولمّا حسده وغبطه ، أغضبه وأسخطه .
ثم بعد ذلك هداه ، وأرضاه ، واجتباه .
فلولا قوة الصورة ما عتى ، ولرجوعه إلى الحق سمي فتى . بالجود في إزالة الغرض ، وأزال بزواله المرض .
وقام الأمر على ساق ، وحصل القمر في اتساق ،وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ(30) [القيامة : 29 ، 30] .

إن الله يزع بالسلطان ، ما لا يزع بالقرآن . فإن السلطان ناطق خالق ، والقرآن ناطق صامت ! فحكمه حكم المائت ، لا يخاف ولا يرجى ، ولا يطرد ولا يزجى . وما استند الصدّيقون إليه ، ولا عوّل المؤمنون عليه ؛ إلا لصدق ما لديه .

فالقرآن أحقّ بالتعظيم من السلطان ، لأنه الكلام المجيد الذي لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(42) [فصّلت : 42] .
لا رادّ لأمره ، ولا معقّب لحكمه . يصدّق في نطقه ، ويعطي الشيء واجب حقّه . فهو النور ، والسلطان قد يجور .

ومن ذلك ، مراتب الأحبة في منزل المحبة ، من الباب (185) :
الأحباب أرباب ، والمحبوب خلف الباب ، المحبّ ربّ دعوى ، فهو صاحب بلوى .
لولا دعوى المحبة ، ما طلبنا الجزاء من اللطيف .
المحبوب إن شاء وصل ، وإن شاء هجر ؛ فإذا ادّعى محبّه محبّه اختبر . المحبّ في الاختبار ، والحبيب مصان من الأغيار ، ولهذا لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ[الأنعام : 103] .
للأحبة منزل في المحبة ؛ فحبيب جنيب ، وحبيب قريب . فالمحبّ إذا كان ذا جنابة ، فما هو من القرابة ، وإذا لم يكن جنيبا ، كان قريبا !

قرب الحبيب بالاشتراك في الصفة ، وجنابته في عدم الاشتراك فيها ، كما أعطت المعرفة
: « تقرّب إليّ بما ليس لي » لما طلب القرب الولي ،
والذي ليس له : الذّلة والافتقار ؛ فهو الغنيّ العزيز الجبار ، والمتكبر خلف باب الدار .
أنظر إلى ما أعطاه الاشتراك والدعوى ، من البلوى ! هو في النزوح بالجسم الصوري
والعقل والروح ، ولهذا لا يتجلى - لمن هذه صفته - إلا القدّوس السّبوح .
فالنزيه للعين ، لا يقول بالاشتراك في الكون .

ومن ذلك ، الشوق والاشتياق للعشاق ، من الباب (187) :

الشّوق يسكن باللّقاء ، والاشتياق يهيج بالالتقاء
لا يعرف الاشتياق إلّا العشّاق .
من سكن باللّقاء ، فما هو عاشق ، عند أرباب الحقائق .
من قام بثيابه الحريق ؛ كيف يسكن ؟
وهل مثل هذا يتمكّن !
للنار التهاب وملكة ، فلا بدّ من الحركة .
والحركة قلق . فمن سكن ، ما عشق
كيف يصحّ السّكون ؟ وهل في العشق كمون ، هو كلّه ظهور . ومقامه نشور
العاشق ما هو بحكمه ، وإنّما هو تحت حكم سلطان عشقه .
ولا بحكم من أحبّه .
هكذا تقتضي المحبّة .
فما حبّ محبّ إلّا نفسه ؛ أو ، ما عشق عاشق إلّا معناه وحسّه ! لذلك ،
العشّاق يتألّمون بالفراق ، ويطلبون لذّة التّلاق .
فهم في حظوظ نفوسهم يسعون
وهم في العشّاق الأعلون .
فإنّهم العلماء بالأمور ، وبالّذي خباه الحقّ خلف السّتور .
فلا منّة لمحبّ على محبوبه ، فإنّه مع مطلوبه ،
ولا عنده محبوب ومرغوب .
سوى ما تقرّ به عينه ، ويبتهج به كونه .
ولو أراد المحبّ ، ما يريده المحبوب من الهجر
هلك . . بين الإرادة ، والأمر ! وما صحّ دعواه في المحبّة
ولا كان من الأحبّة . .
ففكّر ، تعثر !

ومن ذلك ، الشّطح من الفتح ، من الباب (202) :

من شطح عن فناء شطح ! وهذا من أعظم المنح ؛ إلا أنه يلتبس على السامع ، فلا
يعرف الجامع من غير الجامع ، ولهذا الالتباس ، جعله نقصا بعض الناس ، من باب

سدّ الذريعة ، لما فيها - بالنظر إلى المخلوق - من الألفاظ الشنيعة التي لا تجيزها لهم الشريعة .
فمن تقوّى في هذا الفتح ، وعلم من نفسه أنه ليس بشاطح ، لم يظهر عليه شيء من الشطح . فلا يظهر الشطح ، من صاحب هذا الصف ، إلا إذا كان في حاله ضعف . .
ألا إن تبيّن ذلك ، عند الواصل والسالك . .
ألا ترى إلى ما قال صاحب القوة ، والتمكين في إنفاذ الأمر : « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر » فانظر إلى أدبه في تحلّيه ، كيف تأدّب مع أبيه ، وما ذكر غير إخوته.
فالأديب من أخذ بأسوته ، فإن ربّه أدّبه . ومن أدّبه الحقّ ؛ أنزل الناس منازلهم ، لمّا تحقّق .

ومن ذلك ، الجامع واسع ، من الباب (229) :
لو لم يكن في الجامع اتساع ، ما كان جامعا بالإجماع . قلب المؤمن جامع للوسع ؛ فغاية اتّساعه على مقداره ، واتّساعه على قدر أنواره ، فتجوّل الإبصار ، على قدر ما تكشف له الأنوار ؛ ويكون السرور على قدر ما يحصل لك من الكشف بذلك النور .اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ[النّور : 35] فقد عمّ الرفع والخفض .
فصاحب البصر الحديد ، يدرك به ما يريد ؛ ولهذا ، إرادة المحدث قاصرة ، ودائرته ضيقة متقاصرة !
ألا تراه ألبسه على ما قلناه في الخبر : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
وهي جنّة محصورة ، والأمور فيها مقصورة ؛ فكيف بمن لا يأخذه حصر ، ولا يسعه قصر ؟ كيف ينضبط شأنه ، أو يحدّ مكانه من مكانه ، عينه جهل ، ولو عرف كونه !

ومن ذلك ، المريد من يجد في القرآن ما يريد ، من الباب (235) :
كان شيخنا أبو مدين يقول : المريد ، من يجد في القرآن كلّ ما يريد ! ولقد صدق - في قوله - الشيخ العارف ؛ لأن الله يقول :ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ[الأنعام : 38] فقد حوى بجميع المعارف ، وأحاط بما في العلم الإلهي من المواقف . .
وإن لم تتناهى ، فقد أحاط علما بها ، وبأنها لا تتناهى . فاسترسل عليها علمه ، وأظهرها عن التتالي حكمه إلى غير أمد ، بل لأبد الأبد .
فالمريد المكين ، من يقول - لما يريد -كُنْ فَيَكُونُ[الأنعام : 73] . . فمن لم يكن له هذا المقام ، فما هو مريد ، والسلام !
من كانت إرادته قاصرة ، وهمّته متقاصرة ، لا يتميّز عن سائر العبيد ؛ فهذا معنى المريد . . فإن احتججت بقوله :إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ[القصص : 56] فما أصبت . العلّام ، من ينتقل من مقام إلى مقام ؛ ذلك حكم الدار ، وأين دار البوار من دار القرار ؟

ومن ذلك ، الاغتراب تباب . . من الباب (237) :

الغربة مفتاح الكرب ، ولولاها ما كانت القرب . القريب هو الغريب ، وهو الحبيب ، ولا يقال في الحبيب أنه غريب ، هو للمحب عينه ، وذاته ، وأسماؤه ، وصفاته . لا نظر له إليه ، فإنه ليس شيئا زائدا عليه .

ما هو عنه بمعزل ، وما هو له بمنزل .

قيل لقيس ليلى : من أنت ؟

قال : ليلى !

قيل له : من ليلى ؟

قال : ليلى !

فما ظهر له عين في هذا البين ، فما بقي اغتراب ، فإنه في تباب ؛ فقد عينه ، وزال كونه .

العشّاق ، لا يتصفون بالشوق والاشتياق ، الشوق إلى غائب ، وما ثمّ غائب . من كان الحقّ سمعه ، كيف يطلبه ؟ ومن كان لسانه ، كيف يعتبه ؟

فأين تذهبون ، وما ثمّ أين عند من تحقّق بالعين .

ومن ذلك ، من شرب طرب . . من الباب (256) :

لا يطرب الشارب ، إلا إذا شرب خمرا ، وإذا شرب خمرا فقد جاء شيئا إمرا ؛ لأنه يخامر العقول ، فيحول بينها وبين الأفكار ، فيجعل العواقب في الأخبار ، فيبدي الأسرار برفع الأستار . فحرّمت في الدنيا لعظم شأنها ، وقوة سلطانها . . وهي لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ[محمّد : 15]

حيث كانت ، ولهذا ، عزّت وما هانت . في الدنيا محرّمة ، وفي الآخرة مكرّمة .

هي ألذّ أنهار الجنان ، ولها مقام الإحسان . عطاؤها أجزل العطاء ،

ولهذا يقول من أصابه حكمها ، وما أخطأ للشاعر الجاهلي المنخّل بن مسعود اليشكري:

فإذا سكرت فإنّني * ربّ الخورنق والسّدير

وهو صادق . . وإذا فارقه حكمها ، وعفا عنه رسمها ، يقول - أيضا - ويصدق ، وقال الحق :

وإذا صحوت فإنّني * ربّ الشّويهة والبعير

وهذا المقام أعلى ، لأنه ربّ الحيوان ، فتفطّن لهذا الميزان .

ومن ذلك ، التنزيه تمويه . . من الباب (280) :

إنّ الوجود لأكوان وأشباه * فلا إله لنا في الكون إلّا هو

جلّ الإله فما يحظى به أحد * فلم يقل عارف بربّه ما هو

لله قوم إذا حقّوا بحضرته * يبغون وصلتهم بذاته تاهو

قد موّه القوم بالتّنزيه وهو هم * في كلّ حال ، فعين القوم عيناه
والله ما ولد الرّحمن من ولد * وما له والد ، ما ثمّ إلّا هو
وكلّ ما في الوجود الكون من ولد * ووالد هو في تحقيقنا ما هو
دليلنا : ما رمى بالرّمل حين رمى * محمّد ، وهو قولي : ما هو إلّا هو
فالحمد لله لا أبغي به بدلا * لأنّه ليس في الأكوان إلّا هو

ومن ذلك ، الدليل في حركة الثقيل ؛ من الباب (293) :

الأمر جليل ، من أجل حركة الثقيل ؛ لا يتحرّك إلا عن أمر مهم ، وخطب ملم . .

كزلزلة الساعة المذهلة عن الرضاعة ، مع الحبّ المفرط في الولد ، ولا يلوي على أحد .
وقد ذهب بعض الأوائل ، أن العالم أبدا نازل ، يطلب بنزوله من أوجده ، حين وحّده .
. والحقّ لا ينتهي ، فمن أول حركة ، كان ينبغي أن يعتكف عليه ، لأنه جلّ أن تقطع إليه المسافات المحقّقة ، فكيف المتوهّمة ؟
رسوم معلّمة ، وأسرار مكتّمة
بيوت مظلمة ، وألسنة غير مفهمة
لأن الخيال ، يخيّل العلم به والمقال !
فأين تذهبون ، أو ماذا تطلبون ؟
يقول العارف لأبي يزيد : « الذي تطلبه تركته ببسطام » فدلّه على المقام . فإن العبد يسار به في حال إقامته ، إما إلى دار إهانته ، وإما إلى دار كرامته .

ومن ذلك الإيثار ليس من صفات علماء الأسرار من الباب (333) :

ما هو لك ، فما تقدر على دفعه . وما ليس لك ، فما لك استطاعة على منعه ، فأين الإيثار ؟ والأمر أمانة ، فأدّها إلى أهلها قبل أن تسلبها وتوصف بالخيانة .
فاعطها عن رضى قلبك ، تفز برضى ربّك ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا :
لله قوم وجود الحقّ عينهم * هم الأحياء إن عاشوا وإن ماتوا
هم الأعزّ ألا يدرون أنّهم * هم ولا ما هم إلّا إذا ماتوا
لله درّهم من سادة سلفوا * وخلّفونا على الآثار إذ ماتوا
لا يأخذ القوم نوم لا ولا سنة * ولا يؤدهم حفظ ولو ماتوا
فكيف بالشّمس لو أبدت محاسنهم * أقسمت بالله إنّ القوم ما ماتوا
وكنت تصدق ، إنّ الله أخبرنا * عن مثلهم ، أنّهم والله ما ماتوا
أحياء لم يعرفوا موتا وما قتلوا * في معرك وذووا رزق وقد ماتوا
فلو تراهم سكارى في محاربهم * لقلت إنّهم الأحيا وإن ماتوا
الله كرّمهم ، الله شرّفهم * الله يحييهم به إذا ماتوا
لقد رأيتهم كشفا وقد بعثوا * من بعد ما قبروا ، من بعد ما ماتوا

ومن ذلك ، من وعظه النوم من القوم ؛ من الباب (374) :
قال : من أراد أن يعرف حاله بعد الموت ، فلينظر في حاله إذا نام هو ، وبعد النوم . فالحضرة واحدة ، وإنما ضرب الله لنا ذلك مثلا ؛ وكذلك ضرب اليقظة من النوم ، كالبعث من الموت ، لقوم يعقلون .
وقال : الدنيا والآخرة أختان ، وقد نهى الله عن الجمع بين الأختين ، والجمع يجوز بين الضرّتين ، فما هما ضرّتان ! لكن لما كان في الإحسان إلى إحدى الأختين بالنكاح ، إضرار بالأخرى ؛ لذلك قيل فيهما ضرّتان ، فتنبّه .

وقال : سفينتك مركبك ، فاخرقه بالمجاهدة .
وغلامك هواك ، فاقتله بسيف المخالفة .
وجدارك عقلك - لا ، بل الأمر المعتاد في العموم - فأقمه تستر به كنز المعارف الإلهية عقلا وشرعا ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، إذا بلغ عقلك وشرعك فيك أشدّهما ، وتوخّيا ما يكون من المنفعة في حقّهما ، وما أريد بالشرع إلا الإيمان ، فإن العقل **والإيمان :** نور على نور .

ومن ذلك ، ما يحصّل : صاحب الرّحلة عن كل نحلة ؛ من الباب (375) :
قال : الرحلة من الأكوان إلى الله تعالى ، جهل به تعالى . فلو رأى وجه الحق في كل شيء ، لعرف قوله تعالى :وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها[البقرة : 148] وقوله :فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ[البقرة : 115] وقوله :لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً[المائدة : 48] على الاعتبارين في قوله :وَمِنْهاجاً[المائدة : 48] .
وقال : الظلمة دليل على علم الغيب ، والنور دليل على عالم الشهادة . فالليل لباس ؛ فأنت الليل ، والنهار للحركة ، فهو للحق . شؤنة الحركة حياة ، وهي حقّية ؛ والسكون موت ، فهو خلقيّ ، ومع هذا ، فله ما سكن بالوجهين - من السكون والثبات - ولك ما تحرّك بالوجهين : من ، وإلى ، ولا اعتبار لليل ولا لنهار ، فله ما فيها من حكم الإيجاد ؛ ولك ما فيها من الانتفاع . والنوم راحة بدنية ، ومكاشفات عينية غيبية .
وقال : إرداف النعم وتواليها ، إرفاد الحق ومنحه لعباده ، فمن اتقى الله فيها سعد ، ومن لم يتّق الله فيها شقي .
وقال : مواهب الحقّ لا تحجير عليها ، **فلا تقل :** لم نعط ،
فإن الحقّ يقول : لم تأخذ . الدليل ما ورد من التكليف . .
قيل لك " **لا تفعل** " فعلت ، قيل لك " **افعل** " لم تفعل ، هكذا الأمر !

ومن ذلك ؛ الفرق في الوحي ، بين التّحت والفوق . . من الباب (376) :
قال : إذا قام المكلّف بما خاطبه به رسوله ، من حيث ما بلّغه عن ربّه - لا من حيث ما سنّ له - فما دخل له ، مما أتحفه الحقّ به في ميزان قيامه ،

فذلك : العلم المكتسب ، وما خرج عن ميزانه ، ولا يقبله ميزان عمله ،
فذلك : علم الوهب الإلهي .
فالعلم الكسبيّ **نصر الله** ، والوهبيّ **فتحه** . .
فإذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1) [النّصر : 1] ، علم أنه قد قام بحقّ ما كلّف ؛ وإذا انقادت إليه قواه - الحسّيّة والعقلية -
فمشت معه على طريقه ، الذي هو صراط الله ، لا صراط الرّبّ ؛ فليشكر الله على ما خوّله به وحباه .
وقال : خفي عن الناس طاعة إبليس ، بلعنة الله إياه ، كما خفي عنهم موافقة الملك ربّه - في خلافة آدم - بثناء الله عليهم ورضاه عنهم .

ومن ذلك ؛ الاستقصاء ، هل يمكن فيه الإحصاء . . من الباب (383) :
قال : إذا رأيت من يتبرأ من نفسه ، فلا تطمح فيه ، فإنه منك أشد تبرؤا . فافهم !
وقال : ما ثمّ ثقة بشيء ، لجهلنا بما في علم الله . . فيا لها من مصيبة !
وقال : ما ثمّ إلّا الإيمان ، فلا تعدل عنه . وإيّاك والتأويل فيما أنت به مؤمن ، فإنك ما تظفر منه بطائل ، ما لم يكشف لك عينا .
وقال : اجعل أساس أمرك كله على الإيمان والتقوى ، حتى تبين لك الأمور ، فاعمل بحسب ما بان لك ، وسر معها إلى ما يدعوك إليه .
وقال : اجعل زمامك يد الهادي ، ولا تتلكأ ، فيسلّط عليك الحادي ، فتشقى شقاء الأبد .
وقال : من كانت داره في الدنيا الجنان ، خيف عليه ، وبالعكس ! .

ومن ذلك ، من خيّرك ، فقد حيّرك ، من الباب (400) :
قال : ما دعا الملأ الأعلى إلى الخصام ، إلا التخيير في الكفّارات .
التخيير حيرة ، فإنه يطلب الأرجح أو الأيسر ، ولا يعرف ذلك إلا بالدليل ، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أواسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة .
وقال : إذا خيّرك الحقّ في أمور ، فانظر إلى ما قدّم منها بالذكر ، فاعمل به ، فإنه ما قدّمه حتى تهمم به وبك ، فكأنه نبّهك على الأخذ به .
ما تزول الحيرة عن التخيير ، إلا بالأخذ بالمتقدّم . تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السعي في حجّة الوادع :إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ[البقرة : 158] ثم قال : **« أبدأ بما بدأ الله به »** فبدأ بالصفا . .
وهذا عين ما أمرتك به لإزالة حيرة التخيير ؛لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [الأحزاب : 21] .

ومن ذلك ؛ مزلّة الأقدام ، في بعض أحكام العقول والأحلام . . من الباب (407) :
قال : العارف من عبد الله من حيث ما شرع ، لا من حيث ما عقل من طريق النظر .

وقال : العقل قيّد موجده ، والشرع والكشف أرسله ، وهو لله الحق **!** .
وقال : للهوى في العقل حكم خفيّ ، لا يشعر به إلا أهل الكشف والوجود .
وقال : أثر الأوهام في النفوس البشرية ، أظهر وأقوى من أثر العقول ، إلا من شاء الله
.
وقال : من رحمة الله بنا ، أنه رفع عنا المؤاخذة بالنسيان ، والخطأ ، وما نحدث به أنفسنا ، فلو أخذنا بما ذكرنا لهلك الناس .
وقال : ما سمّيت العقول عقولا ، إلا لقصورها على من عقلته - من العقال - فالسعيد من عقّله الشرع ، لا من عقّله غير الشرع .

ومن ذلك ، تنبيه : لا تضاهي النور الإلهي . . من الباب (420) :
قال : الحقّ لا يضاهي ، لأنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[الشّورى : 11] إنما الله إِلَهٌ واحِدٌ[البقرة : 163] فأين المضاهى ؟ .
وقال : صفات التشبيه مضاهاة مشروعة ، فما أنت ضاهيت **!** .
وقال : العقل ينافي المضاهاة ، والشرع يثبت وينفي ، والإيمان بما جاء به الشرع هو السعادة ، فلا يتعدى العاقل ما شرّع الله له **!** .
وقال : العاقل من هجر عقله ، واتّبع شرعه بعقله من كونه مؤمنا .
وقال : أكمل العقول ، عقل ساوى إيمانه ، وهو عزيز .
وقال : لو تصرّف العقل ما كان عقلا ، فالتصريف للعلم لا للعقل .
وقال :
للعقل لبّ وللألباب أحلام * وللنّهى في وجود الكون أحكام
تمضي اللّيالي مع الأنفاس في عمه * للخوض فيه ، وأيّام وأعوام
وما لنا منه من علم ومعرفة * إلّا القصور وأقدام وإيهام
العلم بالله نفي العلم عنك به * فكلّ ما نحن فيه فهو أوهام
وقال : العاقل ، من لعقله أعقل أنه لا يعقل ، فمتى عقلت جهلت .

ومن ذلك ، من أبى أن يكون من النقباء . . من الباب (456) :
قال : النقيب ، من استخرج كنز المعرفة بالله من نفسه ، لما سمع قوله عزّ وجلّ :سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ[فصّلت : 53] وقوله :وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ(21) [الذّاريات : 21] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه عرف ربّه » .
وقال : من أبى أن تكون له مثل هذه المعرفة . . لم يكن من النقباء .
وقال : لما علم أن بين الدليل والمدلول وجها رابطا ، زهد في العلم بالله من حيث نظره في الدليل - وليس سوى نفسه - وكان ممّن عرف نفسه بالله . .
وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أصحاب النظر ، مثل أبي حامد ، ولكن لنا في ذلك طريقة غير طريقتهم .

فإن الذي ذهبوا إليه في ذلك لا يصحّ ، والذي ذهبنا إليه يصحّ ؛ وهو أن نأخذ العلم به إيمانا ، ثم نعمل عليه ، حتى يكون الحقّ جميع قوانا فنعلمه به ، فنعلم عند ذلك نفوسنا به ، بعد علمنا به . .
وهذه طريقة أهل الله في تقدّم العلم بالله .

ومن ذلك : دين الأنبياء واحد ، ما ثمّ أمر زائد ؛ وإن اختلفت الشرائع ، فثمّ أمر جامع :
الدّين عند الأنبياء وحيد * ومقامه بين الأنام شديد
فإذا الرّجال تفطّنوا لرحيله * عنهم وقام لهم بذاك شهيد
جاؤوا إليه مهطّعين لعلّه * يوما بقصدهم إليه يعود

قال : هو إقامة الدين ، وأن لا يتفرّق فيه . ما خلق الله أبغض إليه من الطلاق ، وهو بيد من أخذ بالساق ، فلماذا يقصد إلى البغيض مع هذا التعريض ؟ .
نكاح عقد وعرس شهدوا ، بتنا ببكر صهبا ؛ في لجّة عمياء .
نفوس زوّجت بأبدانها ، ولم يكن ناكحها غير أعيانها .
ثم أنه مع التكدّر والانتقاص ،وَلاتَ حِينَ مَناصٍ[ص : 3] .
ثم مع هذا يدعو ويجاب إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ[ص : 5] وأعجب من ذلك ؛ "جبال سيّرت" فَكانَتْ سَراباً "ووسماء فتحت فَكانَتْ أَبْواباً" ذات "حبك " وبروج ، وأرواح لها فيها نزول وعروج ، ووَما لَها مِنْ فُرُوجٍ[ق : 6]
فأين الولوج وأين الخروج ، وأين النزول ، وأين العروج .
هذا موضع الاعتبار ،فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ[الحشر : 2] .
والله ، إن أمرا نحن فيه لمريج ، وإن زوجا زوّجنا به لبهيج .
سقف مرفوع ، ومهاد موضوع .
ووتد مفروق ، ووتد مجموع .
ظلمة ونور ،
وبيت معمور ،
وبحر مسجور ،
ومياه تغور ، ومراجل تفور
فار التّنّور ، واتّضحت الأمور
نجوم مشرقة ، ورجوم محرقة .
شهب ثواقب ، وشهب ذات ذوائب .
كلّما نجمت ، ذهبت ! .
يا ليت شعري : ما الذي أنارها ، وما الذي أوجب شرارها .
وأخواتها ثوابت لا تزول ،
في طلوع وأفول .
ليل عسعس ، فظهرت كواكبه .

وصباح تنفّس ، فضحه راكبه .
جوار خنّس في مجاريها ، وظباء كنّس لتحفظ ما فيها .
ليل ونهار ، أنجاد وأغوار ، إبدار وإسرار .

يا أهل الأفكار :
أقسم نجيّكم قسما لا لغو فيه ولا ثنيا ، إن الذي جاء بهذا كله لصادق .
يؤمن به - لا بل يعلمه - الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق ؛ شخص من الجنس ، أيّد بروح القدس .
قيل له : بلّغ ، فبلّغ . وذكر ، فأبلغ
وقذف بالحقّ على الباطل ، فدمّغ ! .
فزهق الباطل ، وتحلّى العاطل .
نشأة الآخرة ، ردّه في الحافرة .
كيف يكون التّجسّد . . مع التّقيّد ؟ !
إن كان نفس الأمر انقلاب عين ، فقد جهل الكون .
وإن كان في النظر ، فهو من مغالط البصر . .
فإذا انبهم الأمر ، وأشكل ، فما لك إلا أن تتوكّل ! .
فأسلم وجهك إلى الله وأنت محسن ، تكن ممّن استمسك بالعروة الوثقى ، فإنه خير لك وأبقى .
وكن مع الرعيل الذي خطب بقوله :وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى[طه : 73] . .
تكن السعيد ، الذي لا يشقى .
فإن نزلت عن هذه الدرجة ، فانزل إلى :وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى(17) [الأعلى : 17] . .
فإنهم ، وإن كانوا سعداء ، فإنه لا يستوي المؤمنون الميّتون على فرشهم ، والشهداء .
فلكل علم رجال ، ولكل مقام حال .
ولكل بيت أهل ، ومع كل صعب سهل .
وهذا القدر كاف في هذا الباب ، لمن علم فطاب ، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب .
انتهى الباب ، بانتهاء المجلدة الخامسة والثلاثين من هذا الكتاب والحمد لله ، وصلّى على محمد رسوله . بخط منشيء هذا الكتاب .
*

فهرس شرح مشكلات الفتوحات المكية